كلمة العدد

بحرين الألفية الثالثة
بحرين الأسرة الواحدة

بقلم : سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة

احتفلت البحرين منذ أيام بالعيد الوطني المجيد . والعيد الوطني هذا العام يكتسب صورة خاصة ومتميزة . . . فقد جاء مواكباً لعيد الفطر المبارك في توافق يشيع التفاؤل في القلوب والعقول . ثم هو أول عيد وطني في الألفية الثالثة التي تدخلها البحرين بكفاءة واقتدار، واستعداد كامل لمواجهة تحديات المستقبل .

والعيد يأتي بعد ذلك، وقد وضع حجر الأساس لإقامة الدولة العصرية . . . بتوجيهات حاسمة ومتتابعة ودقيقة، ومسيرة فتية يقود صفوفها حضرة صاحب السمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة أمير البلاد المفدى، يؤازره صاحب السمو الشيخ سلمان بن حمد بن عيسى آل خليفة ولي

العهد الأمين، وصاحب السمو الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة رئيس الوزراء الموقر . . . قيادة واعية ورشيدة وحكيمة، تعلم جيداً متطلبات العصر، وتدرك جيداً حجم التحديات التي تواجه البحرين كدولة صغيرة محدودة الموارد .

واستعداداً لهذا الغد المأمول، طرح سمو أمير البلاد مشروع ميثاق العمل الوطني، الذي أقره شعب البحرين بأغلبية ساحقة . ثم أرسيت قواعد الديمقراطية، وبدأ العمل لإقامة أركان الدولة العصرية المأمولة، التي تواكب العصر، وتحتوي تحدياته، فشكلت اللجنة العليا لتعديل الدستور، وأطلق سراح المسجونين السياسيين، وأزيل الحظر على البحرينيين في الخارج، ووجهت الدعوة لكل الكفاءات البحرينية للعمل صفاً واحداً من أجل بناء الوطن العزيز، والانطلاق كتيبة واحدة لصنع مستقبل أفضل لكل من يحيا فوق هذه الأرض الطيبة .

كل ذلك يؤكد أن بلادنا تقف على أعتاب مرحلة جديدة وهامة من تاريخها الحديث . . . نلتقي فيها جميعاً على بداية درب ممتد إلى آفاق الأمل المنشود . . . نصطف فيها جميعاً حشداً واحداً وكتيبة واحدة وصفاً واحداً خلف القيادة الحكيمة والمؤمنة لشعب وفيٍّ أصيل في مسيرة الخير والغد المشرق . . . وفي انطلاقة فتية نحو المستقبل الواعد . . . الذي نحلم به جميعاً لنا ولأبنائنا، وللأجيال القادمة من بعدنا .

إن البحرين وهي تنطلق مع بداية الألفية الثالثة . . . لتدرك تماماً عِظَم التحديات التي تحملها معها هذه الألفية . . . وتدرك أيضاً وبوعي مشهود أن

الأسرة الواحدة، وتلاحم الصف، ودعم الوحدة الوطنية، والوعي بما يلوح في آفاق الغد . . . كل ذلك يشكل الأساس المتين والمنطلق الصلب نحو المستقبل المأمول . إن حشد كل الطاقات والجهود، والبذل والعطاء، هو أفضل وقود لقاطرة التنمية والتحديث . . . وهو الزاد الذي لا ينفد في رحلة الغد الذي نريده سعيداً لشعب البحرين العريق . . . بحرين الخير والعطاء . . . بحرين العراقة والتاريخ . . . بحرين الأسرة الواحدة التي جمعت الحاكم والمحكوم في رباط من الحب والوفاء، وفي حشد مبارك من العمل الدؤوب لتحقيق الخير . . . كل الخير .

إن العمل يقتضي التلاحم كتفاً بكتف، ويداً بيد . . . لبناء الدولة العصرية التي ندخل بها عصراً جديداً تتسارع فيه كل الدول وتتصارع لتأخذ مكانها اللائق بها . . . ولتحتل مكانتها التي تعكس طموحها وطموح قيادتها في عالم الألفية الثالثة بكل معطياته وتحدياته .

والله ولي التوفيق .

عبد الله بن خالد آل خليفة

جوانب مضيئة
للصلة التاريخية
بين دولة الإمارات



القسم الأول

العربية المتحدة والبحرين



بقلم : الدكتور علي أباحسين

عندما تأسس حكم آل خليفة في قطر وذلك في زمن الشيخ محمد بن خليفة ومن أبنائه خليفة وأحمد وكانت عاصمتهم الزبارة، كان يجاورهم من الشرق إمارة (بني ياس) والتي يحكمها آل نهيان . وتميزت العلاقات بين آل خليفة وآل نهيان بعلاقات (حسن الجوار) عبر التاريخ . وكان من أشد الروابط التي جمعت بين الجارتين (المذهب المالكي) الذي ساد الجارتين، هذا بالإضافة إلى الظروف المتشابهة التي تعرضت لها الإمارتان من تدخل أجنبي نتيجة مطالبات من جانب قطر للمياه الإقليمية والجزر ونحوها مما جعل المنطقة غير مستقرة . وبالتالي تدخل الإنجليز وفرضوا شروطهم واتفاقياتهم لحفظ مصالحهم . وأن أول إشارة عن قبيلة (بني ياس) تعود إلى ١٦٣٣م، وردت في مخطوط للمؤرخ العماني (سرحان بن سعيد) في كتابه (كشف الغمة الجامع لأخبار الأمة) حينما ذكر مناصرة (بني ياس) للإمام (ناصر بن مرشد) اليعربي ضد (البرتغاليين) .

وهنا لابد من ذكر النداء الذي أرسله الإمام ناصر بن مرشد صوب شيوخ الخليج عامة فلبوا النداء . ومنهم (البحرين) والقرين (الكويت) وجلفار (رأس الخيمة) و (دبي) و (ليوا) . فأرسلت هذه الموانئ أربع سفن سميت إحداها باسم (الجلندي بن المستكبر) أحد أئمة عمان لأنه أنقذ سقطره من عدوان الروم . وسميت السفينة الثانية (جلفار) لتذكير الناس بإحراق البرتغاليين لها . وسميت الثالثة (الرستاق) إحدى مدن عمان . والرابعة (شاهين) تذكيراً بتلك السفينة الرائدة في التحذير من خطر البرتغال[1] . وكانت هذه السفن محملة بالرجال ومزودة بالمال . إذ بلغ عدد ما قدمته تلك الموانئ خمسمائة ألف محمدي . وقد استطاع سلطان مسقط دحر البرتغاليين عن الخليج إلى حيث لا رجعة . وكانت هذه بداية للتعاون العسكري الخليجي ضد الأجانب . ونلاحظ مشاركة (بني ياس) مع إخوانهم عرب الخليج ومنهم عرب البحرين مع بداية ظهور دولة آل بوسعيد في مسقط عام ١٧٤٩م أيام ظهور قوة بني ياس ومنهم البوفلاسة والقبيسات والسودان والمزاريع وآخرون . أما قوة بني ياس فيتزعمهم آل بوفلاح وكان شيخهم (شخبوط بن ذياب) الذي تولى زعامة آل بوفلاح خلال الفترة بين (١٧٩٣ - ١٨١٦م) والذي عاصر الشيخ أحمد بن محمد بن خليفة والذي لقب (بالفاتح) لتحريره البحرين عام ١٧٨٣م . فإذا كان الشيخ شخبوط قد استطاع أن يجمع بني ياس تحت لوائه وصد الغزوات الأجنبية، فإن الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة استطاع أن يجمع قبائل العتوب في الزبارة ثم يفتح البحرين ويحررها من أي نفوذ أجنبي . وقد خلفه الشيخ (طحنون بن شخبوط) الذي أصبحت أبوظبي في عهده من القوى الهامة في ساحل الخليج وذلك لتأييد بني ياس والقبائل الأخرى له . وامتدت مشيخته حتى عام ١٨٣٣م ، فعاصر الشيخ (سلمان بن أحمد الفاتح) حاكم البحرين . وكان لكل من أبوظبي والبحرين أسطول بحري كبير لصيد اللؤلؤ . وبعد وفاته تولى إمارة أبوظبي الشيخ (خليفة بن شخبوط) من ١٨٣٣ - ١٨٤٥م .

ومرت البحرين في فترة اضطراب نتيجة للصراع بين الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة وأبنائه من جهة وبينه

وبين حفيدي أخيه وهما : الشيخ محمد والشيخ علي ابني الشيخ خليفة بن سلمان . فقد فقدت البحرين في هذه الفترة الدوحة وما حولها . ولقد ذكر لوريمر في كتابه المترجم في ديوان صاحب السمو أمير دولة قطر قوله : وحدث في أواخر عام ١٨٥١م/١٢٦٨هـأن تم إحراز السلام بين متنازعين في قطر على أثر وساطة (الشيخ طحنون) شيخ أبوظبي . فأعيدت الدوحة في قطر إلى الشيخ علي بن خليفة آل خليفة أخ شيخ البحرين الذي كانت قد انتزعت منه في السابق .

ولما تولى الشيخ (سعيد بن طحنون) حكم أبوظبي مرت بالبلاد مواجهات أجنبية قابلها بقوة وحكمة مدافعا عن حقوق بلاده بعد أن استمال إلى جانبه القبائل الأخرى . ودام حكمه حتى ١٨٥٥م . ومثل ذلك مرت على البحرين فترة التدخل الأجنبي السافر ففرضت عليها المعاهدات مستغلين النزاع الأسري لآل خليفة في البحرين وقطر والدمام . ولما أن تولى الحكم في إمارة أبوظبي (الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان) والذي دامت مشيخته مدة طويلة استمرت حتى ١٩٠٩م وكان الاستقرار والسلام حليفه وذلك لحسن إدراكه للمتغيرات السياسية في المنطقة وحسن تصرفه ، فأحبته القبائل ولقبه الجميع بـ (زايد الكبير) فصاهر كثيرا من القبائل فساندته . وخلف أبناء كان لهم دور في الحكم منهم : طحنون وحمدان وسلطان وصقر . وهنا تختلف سياسة الشيخ زايد الكبير عن سياسة الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة ، فإن الأول وزع مهام الحكم على أبنائه الأربعة الذين خلفوه في الحكم واحدا بعد الآخر، وعكس ذلك الشيخ عبد الله بن أحمد آل خليفة الذي لم يعين حتى وليا للعهد ولم يعتمد على أبنائه فناوأوه بل وأعلنوا العصيان عليه، كما أن الشيخ زايد بن خليفة استطاع أن يقيم علاقات جيدة مع القواسم وآل مكتوم في دبي ويعيد القبيسات إلى أبوظبي ويكرمهم . وبذلك استقرت البلاد في عهده واتسعت الإمارة وامتدت إلى البريمي . عكس ذلك في البحرين إذ مرت فترة اضطراب، كان من ورائها حكام قطر الذين استغلوا الخلافات الأسرية لتحقيق أحلامهم .

وقد فقدت البحرين بعض حقوقها في قطر في هذه الفترة، حتى تولى الحكم الشيخ (عيسى بن علي آل خليفة) الذي عاصر الشيخ (زايد الكبير بن خليفة)

وأبناءه الأربعة . وساد الأمن في عهده وبدأ النشاط الاقتصادي والتقدم الإداري والثقافي وظهرت الخدمات العامة في البلاد والمجالس المدنية والقضائية ، هذا مع ما عرف عنه من كرم وتواضع .

وطالت أيامه من عام ١٨٦٨ حتى ١٩٣٢م، ومع ذلك فقد واجه في أواخر أيامه مشاكل أذكاها الميجر ديلي الذي عين في البحرين من ١٩٢١ - ١٩٢٦م،

أما في الإمارات فقد بدأ فيها التطور الإداري والاقتصادي والخدمات العامة ، كمشروع مد أول خط لأنابيب مياه الشرب من قرب العين إلى مدينة أبوظبي، وذلك في عهد الشيخ (شخبوط بن سلطان) الذي تنازل عن الحكم لشقيقه الشيخ (زايد بن سلطان) في أغسطس ١٩٦٦م[٢] .

الوساطة الأولى للشيخ راشد بن مطر

إن الباحث في تاريخ البلدين الشقيقين يجد أن دولة الإمارات العربية المتحدة منذ أمد بعيد وهي تحاول أن يتم السلام والوئام بين جاراتها بعضهم مع بعض . فكثيراً ما يقوم شيوخ الإمارات بدور الوسيط لإنهاء النزاع القائم بين جيرانها، فقد حدث في أواخر عام ١١٩٦هـ/١٧٨٢م أن تقدم الشيخ نصر آل مذكور (المطروشي) وهو حاكم ميناء بوشهر الفارسي والذي كان يسيطر على البحرين وقتئذ تقدم بقوة كبيرة قوامها نحو ألفي مقاتل وقيل أربعة آلاف جندي يقودهم ابن أخي الشيخ نصر، وحاصرت هذه القوة الغازية (الزبارة) في قطر عاصمة العتوب والقبائل الموالية لهم بدافع من الحسد لازدهار الزبارة اقتصادياً . ورغم أن الشيخ نصر اعتبر هذه القوة كافية لغزو الزبارة إلا أنه أراد تقويض قوة العتوب بمجرد محاصرته لمينائهم . وقام لذلك بدوريات يقوم بها أسطوله بين البحرين والزبارة باستمرار ودام حصار الزبارة نحو شهر . وقد توسط (ميرغني) من بندر ريج بين الشيخ نصر وآل خليفة حقناً للدماء . ولكن

الشيخ نصر قدم شروطا قاسية للصلح، فلم تنجح الوساطة فحل محله الشيخ (راشد بن رحمه) شيخ جلفار (رأس الخيمة) وحاول تسوية النزاع بين الطرفين بصورة سلمية ولكن محاولاته باءت بالفشل . وكان الشيخ (عبد الله بن خليفة بن محمد آل خليفة) يمثل الزبارة في المفاوضات وقد وافق على شروط الصلح . إلا أن الشيخ نصر آل مذكور ومن يمثله رفضوا تلك الشروط وطلب استسلام أهل الزبارة بدون قيد أو شرط واشترط أن يكون له الحق في التحكم برقاب أهلها فلما لم تجد المفاوضات نفعا مع الشيخ نصر طلب (الشيخ عبد الله بن خليفة) من الشيخ نصر أن ينزل قواته، وأخبره بأن حصاره للزبارة غير مجد مادامت القوافل وهي تحمل الغذاء تأتي باستمرار من الصحراء . كما أنه استفز خصمه بقوله أنه من العار عليه وهو يمثل دولة العجم أن يبقى محاصرا للزبارة دون أن ينزل للحرب فأنزل الشيخ نصر قواته بين الزبارة وفريحة في وقت صلاة الجمعة متخذا هذا الوقت لانشغال الناس بأداء الصلاة ليفاجئهم وهم بالمساجد دون أن يعلم أن اجتماعهم هذا أدى إلى قوتهم كما أن المصلين في (فريحة) وجلهم من آل بنعلي توجهوا بسيوفهم لنجدة إخوانهم في الزبارة وكانت امرأة قد انتدبتهم واستنجدت بهم ضد الغزاة وحدثت المعركة في يوم الجمعة في شهر ذي الحجة ١١٩٦هـ الموافق مايو ١٧٨٢م وبذا فوجئت القوات الغازية بهجوم مضاد قوي ضدها فور نزولها . وبعد قتال عنيف أجبر الغزاة على الفرار إلى قواربهم وقتل الشيخ (محمد بن أخي الشيخ نصر) كما قتل (ابن أخي الشيخ راشد بن مطر) وبعض الرجال البارزين من جماعة شيخ هرمز . فرفع هذا الانتصار من معنويات آل خليفة ومن معهم من القبائل الذين اتجهوا لفتح البحرين بقيادة الشيخ أحمد بن محمد آل خليفة وتم فتحها في شهر صفر ١١٩٧هـ الموافق في شهر فبراير ١٧٨٣م وأطلق عليه (الشيخ أحمد الفاتح)(٣).

وحدث في الفترة من ١٧٩٣ إلى ١٨١٦م أن تأكدت زعامة آل بوفلاح وبني ياس واستطاع الشيخ شخبوط من صد الغزوات الأجنبية عن بلاده وساد

عهد الألفة والمودة مع جيرانه فنشطت الملاحة والتجارة والغوص . ومثل ذلك في البحرين في عهد الشيخ سلمان بن أحمد (الفاتح)[٤] .

وفي ١٨١٧م الموافق ١٢٣٢ - ١٢٣٣هـ أخبر (بروس) بأن الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة قدم مساعدات للقواسم وأن سفن القواسم تزور موانئ البحرين في كل ساعة للتموين . وقد أقامت اتصالات دائمة بالبحرين حتى أصبحت البحرين مركزاً لتخزين أموال القواسم ومنها توزع البضائع إلى بوشهر والموانئ الأخرى على الجانب الإيراني للخليج وذلك عن طريق قوارب (القرين) التجارية[٥] .

ولما علم المستر (بروس) أن ميناء البحرين أصبح مأوى للغزاة ونقطة توزيع البضائع التي تم الحصول عليها عن طريق الغزو البحري، بعث المقيم في بوشهر تقارير عديدة ضد تصرفات شيخ البحرين في تشجيع وحماية الغزاة من القواسم وغيرهم الذين وجدوا سوقاً رائجة في البحرين لأموالهم . وكان معظم أطقم سفن الغزاة من سكان الجزيرة الذين يبحرون إلى (رأس الخيمة)، ثم يركبون سفناً أخرى للقيام بحملات الغزو من هناك . ويختتم (واردن) وقتئذ ما نقله عن (بروس) المقيم في الخليج : بأن عتوب البحرين لم يزاولوا الغزو في البحر إلا أنهم يشترون وينقلون الأموال من القواسم كما يزودون القواسم بحاجياتهم المختلفة بما فيها الحبوب والمواد الغذائية الأخرى والمعدات الحربية .

وهكذا شهدت الأعوام الثلاثة من ١٨١٧ - ١٨١٩م تقارباً وثيقاً بين عتوب البحرين والقواسم الذين كانوا يترددون كل ساعة على موانئ جزر البحرين ليتمونوا بالحبوب والأرز والتمور . بل كان هناك تحالف قام بينهما . وفي عام ١٨١٩م تلقى الكابتن لوش المقيم البريطاني في البحرين معلومات بأن أسطولاً من سفن القواسم أرسي في خور القليعة بالبحرين . وحاول شيخ البحرين ومعاونوه التأكيد أن هذه السفن لبني ياس . ودون اهتمام فقد أمر الكابتن لوش البريطاني بالاستيلاء على هذه السفن وإغراقها فدمرها . فما كان من شيخ البحرين إلا أن يحتج احتجاجاً شديداً على خرق حياد بلاده . أما شيخ

أبوظبي فقد أخذ يطالب حكومة بومباي بتعويضات عن الخسائر التي تسببت له فعوضته عن ذلك[٦] .

وفي فبراير عام ١٨١٩م وردت أخبار بأن عدداً من الهنديات وصلن إلى البحرين من (رأس الخيمة) وتم بيعهن علناً في الأسواق، فقدم القبطان (لوك) على ظهر سفينة (إيدن) إلى جزيرة البحرين ومعه خمس سفن حربية مستهدفاً تحرير أولئك النساء . وقال شيخ البحرين في مفاوضاته مع (لوك) بأن الخبر لا أساس له من الصحة . كما تعهد له بعدم السماح ببيع الأموال البريطانية المغتصبة في الأراضي البحرينية، وبناءً على طلب من (لوك) اتصل شيخ البحرين بشيخ رأس الخيمة (حسن بن رحمة) وعرض عليه إطلاق سراح عدد من أسرى القواسم لدى الإنجليز مقابل تحرير عدد من النساء المحجوزات عند الغزاة وتم الاتفاق[٧] . وعلى هذا الأساس تم تحرير سبع عشرة امرأة هندية .

وفي عام ١٨٢٠م/١٢٣٥هـ دمرت بريطانيا أسطول القواسم نتيجة لحملة قام بها (جرانت كير)، وطلب من شيخ البحرين تسليم بقية السفن التي لديه والراسية في الموانئ البحرينية فسلمت إلى القبطان (لوك) . كما تعهد شيخ البحرين بعدم السماح لأي سفن بزيارة البحرين بدون موافقة الحكومة البريطانية . وتم توقيع المعاهدة العامة بين بريطانيا وشيوخ العرب في رأس الخيمة أولاً وفي البحرين فيما بعد[٨] .

هذه الاتفاقية تسمى اتفاقية السلم أو المعاهدة العامة وعقدت بين القبائل العربية في الخليج والحكومة البريطانية . ووقعها كل من الجنرال جرانت كير وتومسون عن الجانب البريطاني . كما وقعها عن البحرين الشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة وأخوه الشيخ عبد الله بن أحمد ووكيلهما السيد عبد الجليل بن ياسين الطباطبائي، وكل من (الشيخ شخبوط) و (حسن بن رحمة) و (حسن بن علي) و (سلطان بن صقر القاسمي) شيخ الشارقة و (عبد الله بن راشد) شيخ القوين و (قضيب بن أحمد) و (زايد بن سيف بن محمد) نيابة عن (الشيخ محمد بن هزاع) و (راشد بن حميد) شيخ عجمان . وتنص هذه

المعاهدة على إنهاء حالة الحرب في الخليج العربي وأن يسود السلام للسفن كافة تحت رقابة الأسطول البريطاني .

وصادف أن تلقى المقيم خبرا عن نهب سفينة لدبي وهي المدينة المتحالفة مع الشيخ (طحنون بن شخبوط) فطلب الإنجليز من الشيخ عبد الله بن أحمد اتخاذ إجراءات ضد من تسبب في هذا الحادث وعرض المقيم مساعدة الأسطول البريطاني إن كان ضروريا لهذا الغرض واكتشف بالنهاية بأن الخبر عار عن الصحة على الإطلاق(٩) .

وفي نهاية عام ١٨٢٥م تعرضت سفينة بحرينية وهي في طريقها إلى مسقط للهجوم من سفينتين من سفن الشارقة وذلك بالقرب من (أنجر ANJAR) حيث أسروا السفينة. ورغم أن شيخ البحرين لم يقدم شكوى رسمية إلا أن السلطات البريطانية قررت اتخاذ خطوات تأديبية وفرضت حصارا حول الشارقة مما أدى إلى تنازلات من شيخ القواسم لإرضاء شيخ البحرين .

وفي أغسطس ١٨٢٥م تعرضت سفينة تابعة لملاح من البحرين للهجوم وهي تحمل عشرين كيسا من البن . فطالب الملاح بتعويض وحصل على ٤٠٠ دولار علما بأن السفينة وصلت إلى مسقط وأعيدت البضاعة إلى صاحبها .

وفي عام ١٨٢٨م وردت أنباء عن استعدادات عسكرية من قبل إمام مسقط لغزو البحرين، فبدأ شيخ البحرين استعداداته لمواجهة الغزو(١٠) .

إلا أن الاحتمال لم يتحقق بسبب انتشار مرض الكوليرا في المنطقة كما تشتت أسطول السيد سعيد في البحر نتيجة عاصفة شديدة . وبذلك فشل غزو إمام مسقط للبحرين، إذ وصل أسطول إمام مسقط إلى البحرين في ٢٧ أكتوبر ١٨٢٨م ورسا في (سترة) وقاد (الشيخ خليفة بن سلمان بن أحمد آل خليفة) جيش العتوب لمواجهة هذا الخطر ولحقت بالشيخ خليفة بعد قليل إمدادات أخرى ونزلت قوات الإمام في (سترة) فطوقها الفرسان الذين يقودهم الشيخ خليفة بن سلمان آل خليفة، كما أن جنود (بني ياس) قاتلوا مع آل خليفة ضد الغازي الذي انسحب ببعض أسطوله بينما سقطت بعض السفن في أيدي العتوب، وقتل عدد كبير من جنود

الإمام في هذه المعركة يقدر عددهم بنحو ٥٠٠ جندي وفي تقرير إنجليزي أن (سعيد بن سلطان) إمام مسقط لما شن هجوماً على البحرين في (وقعة قزقن)[١١] عام ١٢٤٤هـ/٢٨ - ١٨٢٩م كان مع الجيش من أبوظبي (الشيخ طحنون)[١٢] فلما بدأت المعركة كان شيخ أبوظبي في الطليعة وانهزم جيش (سعيد بن سلطان) وكان اتفاقاً قد حدث بين الشيخ طحنون والشيخ خليفة بن سلمان بن أحمد الفاتح الذي كان يقود الجيش مع عمه الشيخ عبد الله بن أحمد، هذا الاتفاق يقضي بأن يبدأ الشيخ طحنون المعركة ثم ينسحب فيلحق به جيش سعيد فيكشف جند سعيد بن سلطان ويجعلون جنده في الوسط. وهذا ما حدث إذ انكسر جند سعيد بن سلطان.

ثم حدثت الوساطة من قبل شيوخ أبوظبي والإنجليز بين البحرين وبين سعيد بن سلطان، فتم الصلح وعادت العلاقة جيدة بين الشيخين محمد وعلي ابنيْ خليفة بن سلمان ثم من بعده الشيخ عيسى بن علي والشيخ زايد من جهة وإمام مسقط من جهة أخرى[١٣].

وفي ١٨٣٩م حافظ رئيس (بني ياس) على صداقة شيخ البحرين رغم الخلاف بين شيخ البحرين وعيسى بن طريف البنعلي الذي يسكن أبوظبي. وقد ترك عيسى بن طريف وتابعوه أبوظبي وسكنوا جزيرة الخن، واستعاد شيخ البحرين سفينة تعود لشيخ دبي (مكتوم بن بطي) والتي كانت لدى عيسى بن طريف على أساس أنه كان يمتلكها وتدخل الإنجليز بأن نصحوا عيسى بن طريف بأن يتجنب أي اعتداء ضد أي جزء من الساحل العربي مادام يسكن جزيرة الخن[١٤].

وفي عام ١٢٦٤هـ/١٨٤٧م اشترك شيخ البحرين مع شيوخ الإمارات في معاهدة يلتزم فيها الجميع بالامتناع عن تجارة الرقيق. ووقعها سلطان بن صقر ومكتوم بن بطي وعبد العزيز بن راشد وعبد الله بن راشد وسعيد بن طحنون ومحمد بن خليفة آل خليفة[١٥].

وحدث في عام ١٨٤٨م أن واحداً قام بعدة حوادث نهب لسفن البحرين وحدث أن وقع ذلك الرجل بين يدي الشيخ محمد بن خليفة آل خليفة وطلب المقيم

العام البريطاني إيقاع العقاب به لكن الشيخ محمد بن خليفة ودون أن ينفذ وعده الذي أعطاه للمقيم المساعد أطلق سراح الرجل . فما كان من المقيم إلا أن أنذر الشيخ محمد إنذاراً مباشراً . لكن الشيخ محمد رد عليه باعتذار حار واعداً إياه بأنه سوف يعيد إلقاء القبض على الرجل . ولكن يبدو أن هذه الفرصة لم تتح له فيما بعد[١٦] .

الوساطة الثانية للشيخ زايد بن خليفة

في عام ١٢٨٣هـ/١٨٦٧م تحرك (الشيخ زايد بن خليفة) خارج حدود إمارته ، عندما تسلم رسالة من أمير البحرين (الشيخ محمد بن خليفة) يطلب منه أن ينجده في القضاء على حركة في قطر . وكان قد اجتمع بشيخ بني ياس الشيخ زايد ألف مقاتل أركبهم سبعين سفينة وتوجه لنجدة شيخ البحرين ودون أن تحدث معركة أعلن أفراد الحركة استسلامهم[١٧] .

وتكاد تتشابه العلاقات بين كل من البحرين وأبوظبي في موقفهما من قطر . وتكررت مطالبة الشيخ جاسم بن محمد بن ثاني (بالعديد) منذ عام ١٨٨١م/١٢٩٨هـ .

وقد اعترف الإنجليز في ١٨٧٩م بأن (العديد) جزء من أراضي أبوظبي وأن موقف حكومة الهند ترى أن لا أساس لمطالب تركيا عن العديد . وسبق أن قام الشيخ زايد بن خليفة ومعه بعض أنصاره وعدد من السفن فنزل (العديد) ليقوم بإجراء تأديبي ضد الانفصاليين إلا أنهم كانوا قد غادروا قبل مجيء الشيخ زايد هناك[١٨] .

وفي عام ١٨٨٥م/١٣٠٣هـ وبالتعاون مع ابن رشيد حدثت معركة ضد الشيخ زايد بن خليفة وقع فيها عشرات القتلى من كلا الطرفين وتدخل الأتراك بطلب من الشيخ جاسم الثاني للدفاع عن الدوحة ثم عقد معاهدة دفاعية مع البحرين . عندئذ قام الشيخ زايد بإخضاع القبائل القطرية وفي نفس الوقت قدم مالاً وزاداً لقائد الفرقة العسكرية التركية . وقاد الشيخ زايد وشيخ دبي رتلاً بينما قاد الشيخ طحنون بن زايد رتلاً آخر ضد جاسم الثاني وانتصر عليه

واستعاد (العديد) ولكن الشيخ جاسم أرسل أخيه أحمد بحملة عسكرية اخترقت حدود أبوظبي فكان رد فعل الشيخ زايد ضرب القوات القطرية بقيادة ابنه الشيخ خليفة وساعدهم (المره) من أهل قطر بعد أن اختلفوا مع الشيخ جاسم فانتصر الشيخ خليفة بن زايد في معركة (الصفا) وهي خاتمة المعارك[19] .

وورد في خلاصة المخابرات البريطانية : أن (الشيخ سعيد بن مكتوم) شيخ دبي مر عن طريق البحرين حين زيارته (لابن سعود) . وكان بن سعود قلقاً جداً بسبب الخلاف القائم بين البحرين وقطر وذلك حسب ما ورد في رسالة من الشيخ سعيد بن مكتوم إلى حاكم البحرين وورد فيها : أن الملك عبد العزيز آل سعود حاول حل الخلاف حين زيارته للبحرين في مايو ١٩٣٩م وفي عام ١٩٤٠م طلب (ابن سعود) من الشيخ (سعيد بن مكتوم) أن يحاول التصالح بين البحرين وقطر . لكن الشيخ ابن مكتوم لم يحرز أي نجاح في محاولاته . أما ابن سعود فقد ظل يحاول هو الآخر لتحقيق رغبته في المصالحة بين البلدين . ويعلق الإنجليز في هذه المخابرات أنه يبدو أن تسوية النزاع لن تحصل حتى بعد فترة طويلة ، ومن حسن الحظ أنه ليست لهذه المسألة ذات أهمية حيوية من الناحية العملية[20] .

أما جزيرة (حالول) فقد اعترف الإنجليز بأنها ملكاً لأبوظبي وأبلغوا شيخ أبوظبي رسمياً بإقامة علم على هذه الجزيرة . وفي عام ١٩٣١م ذكر هولز للكولونيل دكسن عن احتمال وجود نفط في جزيرة حالول حينئذ طلب فاول وهو المقيم السياسي في الخليج من الشركة الأنجلو إيرانية بمسح جيولوجي لهذه الجزيرة . كما اختيرت جزيرة دلما وصير بني ياس مهبطاً للطائرات البريطانية ومخزناً للوقود في عام ١٩٣٣م . وفي عام ١٩٦١م قسمت الجزر بين إمارتي أبوظبي وقطر .

ومثل ذلك فقد واجهت البحرين نفس مشاكل الجزر مع قطر بينما كانت جميع الجزر الواقعة بين البحرين وقطر تابعة للبحرين وطالب شيخ قطر بملكيتها حتى عام ١٩٣٩م حيث صدر القرار التاريخي من بريطانيا بأن جزر حوار ملكاً للبحرين وليست لقطر، وذلك بعد التمعن الدقيق بدراسة الدلائل التي قدمها كلا الجانبين ثم بلغ القرار لشيخي قطر والبحرين[21] .

وفي أواخر القرن التاسع عشر عقدت اتفاقيات بين كل من بريطانيا من

جهة وشيوخ البحرين والساحل المتصالح اتفاقية عام ١٨٨٣م وفيها تعهد شيخا الشارقة وأبوظبي بالتمسك بالاتفاقيات القائمة فيما يختص بتجارة الرقيق والتي وقعت في عام ١٨٤٧ و ١٨٥٦م كما وقعها أيضاً شيخ البحرين .

وفي ٣٠ أبريل ١٨٩٨م عقدت اتفاقية حظر استيراد الأسلحة والذخائر وتصديرها إلى ومن أراضي البحرين . وقد أصدرت حكومة البحرين بياناً وإعلاناً لكل من يهمه الأمر وقامت بتفتيش السفن القادمة للبحرين وصادرت كل ما بها من أسلحة وذخائر واعتبرته ملكاً للحكومة . ومثل ذلك عقدت اتفاقية الأسلحة مع شيوخ الساحل المتصالح في ٢٤ و٢٥ نوفمبر ١٩٠٢م ووقعها كل من شيوخ دبي والشارقة وأم القيوين وعجمان وأبوظبي كما وقعها كمبل المقيم السياسي في الخليج وتتضمن حظر استيراد الأسلحة والذخائر وتصديرها من وإلى أراضي الساحل المتصالح ومصادرة كل الأسلحة والذخائر المستوردة أو المصدرة[٢٢] .

وفي التاريخ المعاصر أن شيوخ القواسم لهم صلات نسب مع بعض الأسر الكريمة في البحرين فإن إحدى زوجات الشيخ صقر بن خالد بن سلطان من عوائل البحرين المعروفة وقد أنجبت له الشيخ حميد بن صقر وله ذرية في الشارقة . والشيخ صقر شاعر معروف له شعر مخطوط بقلمه .

ومن القواسم من ارتادوا البحرين كالشيخ محمد بن صقر القاسمي . وسلطان بن سالم القاسمي الذي نفاه الإنجليز للبحرين لأنه رفض إقامة مطار لهم في رأس الخيمة .

وتوالت الرسائل بين الشيخ (عيسى بن علي آل خليفة) والشيخ (سلطان بن صقر) . ففي رسالة مؤرخة في ١٣ ربيع ثاني ١٣٤٥هـ حملها أخوه الشيخ (حميد بن صقر) جاء فيها بعد الديباجة قوله : "وجب علينا تحرير هذه الطوية الدالة على صفاء الاتحاد والمحبة الذاتية ، ونؤمل أن تكون كتبكم الودية المبشرة عن صفات تلك الأنفس الأبية متصلة لا منفصلة" .

وكتب الشيخ (سلطان بن صقر)خطاباً إلى الشيخ (عيسى بن علي آل خليفة) حاكم البحرين بتاريخ ١٢ شعبان ١٣٤٧هـ الموافق ٢٥ يناير ١٩٢٩م جاء فيه : "لما تيسر حصول القاصد إلى نحو جهتكم المحروسة ، وجب علينا تحرير هذه الأحرف سؤالاً عن عزيز الحال وتذكرة عما مضى في الزمان

الخال من الصحة والصداقة والصفاوة والعلاقة وروابط المحبة والاتحاد الماضية من زمن الآباء والأجداد . هانحن أيها الوالد محافظون وعلى أوفى الوفاء ملاحظون . لا نغير من شراب الإخاء ما راق وصفا على السراء والضراء . هذا وعلى الدوام يسرنا استماع سلامة حالكم . . . إلخ . . " . واستمرت العلاقات الودية على ما ورد في هذا الخطاب من محبة وتعاون حتى الوقت الحاضر بين البحرين والإمارات حكومة وشعباً .

واليوم في البحرين كما هو في الإمارات العربية نجد من البوفلاح والبوفلاسة وآل بومهير وغيرهم من القبائل وهذا يدل على أن سكان بلدان الخليج العربي يكونون مجموعة من الأسر التي لا تعتبر الحدود الإقليمية ذات أهمية وكأنهم أسرة واحدة في بلد واحد ولعل ذلك من أهم المقومات التي قام عليها مجلس التعاون لدول الخليج العربية .

وتستقبل مستشفيات البحرين المرضى من الجزيرة العربية وقطر والشارقة ودبي وعمان منذ عام ١٩٢٤م، لأن البحرين أحد المراكز الطبية الهامة في المنطقة تقدم لأكثر من جهة خدماتها . كما أن للمستشفى العائم أهمية في تقديم الخدمات الصحية إلى جميع من يحتاج للعلاج من الغواصين من سكان الخليج بصفة خاصة . ويلاحظ تدفق كثير من مرضى البلدان المجاورة للبحرين وخاصة مرضى العيون التماساً للعلاج خاصة في الأربعينات .

وعلى إثر ولادة الشيخ (عيسى بن سلمان آل خليفة) مساء اليوم الثالث من شهر يونيو ١٩٣٣م الموافق لليوم العاشر من صفر عام ١٣٥٢هـ كتب المعتمد السياسي البريطاني في البحرين إلى المقيم في الخليج خطاباً جاء فيه : "تلقى الخبر شيوخ الساحل المهادن (الإمارات العربية المتحدة) وقطر خبر ولادة الشيخ عيسى بن سلمان بسرور واهتمام بالغين وأرسلوا التهنئة إلى حاكم البحرين سمو الشيخ حمد بن عيسى بن علي آل خليفة وإلى نائبه الشيخ سلمان بن حمد آل خليفة كما طلب المعتمد في البحرين من المقيم في الخليج أن يرسل بطاقة تهنئة إلى حاكم البحرين وإلى نائبه[٢٣] .

وحين البحث عن تكوين اتحاد الإمارات العربية المتحدة فقد شهد اليوم الثامن عشر من فبراير عام ١٩٦٨م صدور إعلان من حاكمي دبي وأبوظبي بإقامة اتحاد فيدرالي بينهما ويفتح الانضمام إليه أمام الإمارات الأخرى . وكان

الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة حاكم البحرين هو أول الحكام العرب في منطقة الخليج العربي الذين أبدوا رغبة في الاستجابة لهذا النداء . وقد شاركت البحرين في جميع مراحل المباحثات التي بدأت في فبراير عام ١٩٦٨م وانتهت في أكتوبر ١٩٧٠م وأخيراً اتخذت البحرين خطوة الاستقلال في ١٤ أغسطس عام ١٩٧١م . أما دولة الإمارات العربية المتحدة فقد أعلنت استقلالها في ٢ ديسمبر عام ١٩٧١م(٢٤) .

وفي عقد السبعينات عقدت عدة اجتماعات شاركت فيها البحرين والإمارات العربية المتحدة في محاولات الدول الخليجية العربية في الوصول إلى الإجماع الإقليمي القائم على المصالح المشتركة في مجالات الاقتصاد والثقافة . كما شارك وزراء الإمارات العربية المتحدة والبحرين في اجتماعات مع ممثلي الدول الخليجية في عام ١٩٧٣م لمناقشة المسائل المتعلقة بالتربية والتعليم والمواصلات والمالية والتجارة والزراعة والعمال والشئون الاجتماعية . واتضح من المناقشات التي عقدت بأن المصالح المشتركة بينهم تتطلب الوصول إلى الحلول والجهود المشتركة(٢٥) .

وفي أبريل ١٩٧٠م حدث استفتاء شعب البحرين تحت مظلة وإشراف الأمم المتحدة وتصديق مجلس الأمن على نتائج الاستفتاء بأن البحرين دولة عربية مستقلة ذات سيادة وحرة في تقرير علاقاتها بالدول الأخرى وبذا تحققت رغبة شعب البحرين في الاستقلال التام . في الوقت نفسه ظهر موضوع نزاع حول جزر (طنب وأبوموسى) أثناء المفاوضات الجارية بين بريطانيا وإيران فوقفت البلاد العربية ومنها البحرين مع الإمارات العربية المتحدة ضد رغبة الشاه في ضم هذه الجزر لبلاده .

وتبودلت الزيارات بين شيوخ الإمارات العربية المتحدة والبحرين فقد كان الشيخ (عيسى بن سلمان آل خليفة) في مقدمة مستقبلي صاحب السمو الشيخ (شخبوط بن سلطان آل نهيان) حاكم أبوظبي حين زيارته للبحرين في شهر أبريل ١٩٦٦م .

وفي زيارة قام بها صاحب السمو الشيخ (زايد بن سلطان آل نهيان) حاكم أبوظبي في شهر أكتوبر ١٩٦٧م كان صاحب السمو الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة في مقدمة مستقبليه وقد تفقد محطة توليد الكهرباء في البحرين وكان بمرافقته صاحب السمو الشيخ خليفة بن

سلمان آل خليفة رئيس الاقتصاد الوطني آنئذ ورئيس بعثة الشرف المرافقة للضيف الكريم . وقد قضى سموه خمسة أيام في البحرين زار بعض المرافق الاقتصادية في البلاد .

وفي عام ١٩٧٠ م زار صاحب السمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكم أبوظبي البحرين مرتين في هذه السنة : فالزيارة الأولى في شهر مايو، والزيارة الثانية في أكتوبر من نفس العام .

وتوالت الزيارات بين العاهلين طيلة السنوات التالية خاصة بعد قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربية .

وفي الثالث والرابع من شهر أيلول (سبتمبر) عام ١٩٧٣م قام حضرة صاحب السمو الشيخ (زايد بن سلطان آل نهيان) رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة بزيارة رسمية إلى دولة البحرين تلبية للدعوة الكريمة التي تلقاها من أخيه صاحب السمو (الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة) أمير دولة البحرين وقد استقبل استقبالاً رسمياً وشعبياً رائعاً وكان على رأس مستقبليه صاحب السمو أمير دولة البحرين وسمو رئيس الوزراء وسمو ولي العهد القائد العام وأعضاء السلك الدبلوماسي وأعيان البلاد .

وأسفرت المباحثات عن توثيق أواصر العلاقات الأخوية التي ترتكز على دعائم متينة من الدين واللغة وحقوق الجوار ووحدة التراب والتراث والتاريخ وتدعيم التعاون البناء في كافة المجالات وتطوير مشاريع التنمية المشتركة وتنسيق الجهود في المجالات التعاونية والإعلامية والاقتصادية . واهتم العاهلان بقضية شعب فلسطين وحقه في استعادة حقوقه . ثم وجه صاحب السمو (الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان) إلى أخيه صاحب السمو (الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة) الدعوة لزيارة دولة الإمارات العربية المتحدة فقبلها شاكراً[٢٦] .

الدكتور علي أباحسين

مدير مركز الوثائق التاريخية – البحرين



سمو الشيخ سعيد بن مكتوم حاكم دبي وعلى يساره نجلاه الشيخ خليفة وشقيقه
وعلى يمينه الشيخ سعيد بن بطي ابن عمه ووزيره الشيخ سالم مصبح ووراءهم
وقوفاً بعض أتباع سموه . والصورة أخذت في بومباي عند زيارة الشيخ سعيد لها



بسم الله الرحمن الرحيم

بجناب الاجل الأمجد الاكرم الكريم الافخم الوفي العزيز الشيخ الوالد عيسى بن علي آل خليفة المحترم سلمه الله تعالى
وعافاه وابقاه وحماه وساعده وتولاه ومن كل آفة كفاه آمين اما بعد السلام التام مع مزيد التحية والاحترام
عليكم ورحمة الله وبركاته حافة بكم على الدوام ما دامت الليالي والايام محبكم ومن ودك بخير لازلنا من
السائلين من صحة الحال لا برحتم مسرورين وبعناية الباري دمتم محروسين ومن هنا فلا حدث ما يجب
نقله اليكم الا ما به مسرة الخاطر وبعث لا تيسر حصول ... محرراتكم المحررة وجب علينا
تحرير هذه الأحرف سؤال عن عزيز الحال وتذكرة عما مضى في الزمان الخالي من المحبة
والصداقة والصفاء والعلائق وروابط المحبة والاتحاد الماضية من زمن الآباء والأجداد
ها نحن ايها الوالد محافظون وعلى الوفا ملاحظون لا نغير من شراب الإخاء ما راق
وبيننا على السراء والضراء هذا وعلى الدوام ... استماع ... معا ... اللوازم ...
وبلغ سلامنا ... الافاضل المشايخ الأولاد ... الاخوان والوالد ... سلام
حرر ... شعبان ١٣٤٧

رسالة من السلطان صقر إلى الشيخ عيسى بن علي مؤرخة في ١٢ شعبان ١٣٤٧هـ.

جدول زمني من (آل نهيان) حكام أبوظبي
ومن عاصرهم من (آل خليفة) حكام البحرين

زايد ١٩٦٦م

(١٣) شخبوط ١٩٢٨ - ١٩٦٦م
عاصر الشيخ حمد بن عيسى بن علي والشيخ سلمان

(١٢) صقر ١٩٢٧ - ١٩٢٨م

(١١) سلطان ١٩٢٢ - ١٩٢٧م
عاصر الشيخ عيسى بن علي

(١٠) حمدان ١٩١٢ - ١٩٢٢م

(٩) طحنون ١٩٠٩ - ١٩١٢م
عاصر الشيخ عيسى بن علي

(٨) زايد ١٨٥٥-١٩٠٩م

(٧) سعيد ١٨٤٥-١٨٥٥م
عاصر الشيخ محمد وعلي وعيسى بن علي

(٦) خليفة ١٨٣٣-١٨٤٥م

(٥)طحنون ١٨١٨-١٨٣٣م

(٤) محمد ١٨١٦-١٨١٨م
عاصره الشيخ سلمان والشيخ عبد الله

(٣) شخبوط ١٧٩٣-١٨١٦م .
عاصر الشيخ أحمد الفاتح والشيخ سلمان بن أحمد آل خليفة

١٧٩٣م (٢) ذيـاب

(١) عيسـى

نـهيـان

فـلاح

يـاس

بسم الله الرحمن الرحيم

بجناب الأجل الأمجد الأكرم الكريم الأفخم الولد العزيز الشيخ عيسى بن علي آل خليفة المحترم سلمه الله تعالى
وعافاه وأبقاه وحماه وساعده وتولاه ومن كل آفة كفاه آمين أما بعد السلام التام مع مزيد التحية والاحترام
عليكم ورحمة الله وبركاته حافة بكم على الدوام بأوقات الليالي والأيام صحبتكم وصحتي وذلك بخير لا زلنا من
السائلين عن صحة الحال لا برحتم مسرورين وبعناية الباري مأنوسين ومحروسين ومن هنا فلا حدث ما يجب
ذكره لديكم الا ما به مسرة الخاطر وبعده قد تحظى كتابكم بعزيز خطاب ولا زال ينتظر جواب جنابكم
السامي بأوبة خيرًا نشا والله وكافي شريف علمكم وعزيز فهمكم أنكم متى ما رفعتم لنا علما
عن جنابكم فكأننا رأيناكم عيانا لأن المكاتبات نصف الملاقاة ومن برهة ونحن نؤمل النظر
في تحرير كتاب المودة لجنابكم ولكن كل شيء مرهون بوقته فالآن لما تعين حصول القادم
إلى سامتكم الكريمة وهو الأخ حميد بن ... وسلامنا عليكم وعلى عيالكم ...
المنصور وجب علينا تحرير هذه الألوكة الدالة على صفاء الاتحاد والمحبة الذاتية ونؤمل أن
تكون كتبكم الودية المبشرة عن صفاء تلك الأنفس الأبية متصلة لا منفصلة معنا
ويبدو لجنابكم السامي بأن الخادم ... هيئة القلم ويبلغ السلام الشيخ الكرام الأخ الأمجد
... والأخ ... والولد صعصعة ... ونحن ... والسلام

تحريرا في ١٢ ع ٢ سنة ١٣٢٤

١٣٠٢ ٧ اكتوبر ١٨٨٥ ٧ اكتوبر ١٨٨٥ [illegible]

١٣٠٢

وصلنا كتابات الوكيل في [illegible] رمضان ١٣٠٢ و [illegible] رمضان ١٣٠٢ و [illegible] ربيع ١٣٠٢

كتبنا جوابات [illegible] الى [illegible] تفاصيل [illegible] ذكرت [illegible]

في ذلك [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] ان [illegible] ان [illegible]

[illegible] ابو ظبي [illegible] ابو ظبي [illegible]

[illegible]

[illegible] اليك [illegible] على طريق [illegible] ان [illegible]

[illegible]

No. 630-S of 1939.

Dated the 11th July, 1939.

To

His Highness
Shaikh Sir Hamad bin
'Isa al Khalifah, K.C.I.E., C.S.I.,
Ruler of Bahrain.

My esteemed friend,

With reference to correspondence ending with your Adviser's letter No. 1972/SF, dated the 22nd December 1938 (Shawwal 29, 1357), on the subject of the ownership of the Hawar Islands I am directed by His Majesty's Government to inform you that, after careful consideration of the evidence adduced by Your Highness and the Shaikh of Qatar, they have decided that these Islands belong to the State of Bahrain and not to the State of Qatar.

I am informing the Shaikh of Qatar accordingly.

I desire to express the high consideration which I entertain for Your Highness, and to subscribe myself

Your Highness's sincere friend,

Sd. T.C.Fowle.
Political Resident in the Persian Gulf.

رقم ٦٣٠-س
في ١١ يوليو ١٩٣٩
٢٣ جمادى الاولى ١٣٥٨

من لفتننت كرنل سر ترنشرد كرد فاول كي سي آي
سي بي ئي المعتمد السياسي بالخليج فارس.

الى حضرة صاحب العظمة الافخم حضرة صاحب
السمو الشيخ سر حمد بن عيسى آل خليفة كي
سي آي إي سي إس آي حاكم البحرين المعظم

بعد اهداء التحية والسلام والاستفسار عن
احوال سموكم السعيدة . نسبة الى المراسلة
التي انتهت بكتاب مستشاركم رقم ١٩٧٢ المؤرخ ٢٢
ديسمبر ١٩٣٨ و٢٩ شوال ١٣٥٧ في موضوع
جزائر حوار . امرتني حكومة جلالة الملك
بانهم بعد التحري الدقيق في الدلائل
بينة سموكم وشيخ قطر على ان هذه الجزائر
بمملكة البحرين ولا تتعلق بمملكة قطر.
انني الآن اخبر شيخ قطر بهذا المعنى.
وفي الختام اقدم الى سموكم فائق الاحترام
[illegible]

Sd. T.C.FOWLE
المعتمد السياسي بالخليج فارس

الهوامش

١ - حمدي تمام، القائد والمسيرة . ص ٢٤ و ٢٥ . أبوظبي، ١٩٨١م . وعبد الله الطائي، الشراع الكبير . مجلة العربي . العدد ٢٧٧، الكويت ١٩٨١م .

٢ - القائد والمسيرة ص ٣٢ - ٤٧ .

٣ - الوثيقة . العدد الرابع . ص ٢٨ .

٤ - د. فالح حنظل، المفصل في تاريخ دولة الإمارات العربية المتحدة، ج ١، ص ٢٥٩ . والقائد والمسيرة ص٣٢ .

٥ - نبذة تاريخية عن قبيلة العتوب العربية، هنل، ص ٤٩ الفقرات من ٤٣ - ٤٦ .

٦ - لوريمر، دليل الخليج . ج ٣ . القسم التاريخي ص ١٢٨١ - ١٢٨٢ .

٧ - ن. م. س. هنل ص ٣٧٢ .

٨ - ن. م. س. هنل ص ٣٧٣ .

٩ - هنل . ص ٣٧٤ .

١٠ - دام حكم الشيخ طحنون بن شخبوط في إمارة (أبوظبي) من ١٨١٨ - ١٨٣٣م، أنظر القائد والمسيرة، حمدي تمام ص ٣٣ .

١١ - النبهاني، التحفة النبهانية . ص ١٥٢ و ١٥٣ . ط٢، ١٣٤٢هـ، القاهرة .

١٢ - حمدي تمام، القائد والمسيرة . ص ٣٣، ط٢ . بلات .

١٣ - ن.م.س. حكم الشيخ طحنون من ١٨١٨ - ١٨٣٣م . أما الشيخ زايد بن خليفة آل نهيان الملقب بـ (زايد الكبير) فتولى إمارة أبوظبي من ١٨٥٥ - ١٩٠٩م الموافق ١٢٧٢ - ١٣٢٧هـ .

١٤ - كمبل، قبيلة العتوب العربية، ص ٣٨٧ - ٣٨٨ .

١٥ - د. حنظل ص ٥٣٦ .

١٦ - لوريمر، الجزء الثالث، التاريخي ص ١٣٣٣ .

١٧ - حكم الشيخ زايد بن خليفة من ١٨٥٥ - ١٩٠٩م . القائد والمسيرة ص٣٥ . والدكتور حنظل ص٦١٣ - ٦١٤ .

١٨ - اف/او/٦٠/٦٣٢/١٣ و٢٧ و٢٨ و٥٢ .

١٩ – د. فالح حنظل . جـ١ ص٦٦٣ – ٦٩٠ .

٢٠ – ال.بي.اس. ١٢/بي. زد ٦٣٦٦ خلاصة المخابرات البريطانية رقم ١٨/لسنة ١٩٤٠م .

٢١ – د. محمد مرسي عبد الله . دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها . ص ٢٩٦ و ٢٩٧/ الكويت ١٩٨١م ووثيقة رقم ار/٢/١٥/٥٤٧/٦٣٨في ١١ يوليو ١٩٣٩م .

٢٢ – لوريمر، الجزء السادس، التاريخي ص ٣٥٨٣ و ٣٧٧٠ و ٣٧٧١ .

٢٣ – د. أباحسين، مسيرة الخير والعطاء في البحرين . ص ٢٣ آر/١/١٥/٧١٥/٣/١٩٣٣م . ص ٣٢/١٥ و آر/١٥/١/٣١٦ في ١٦ يونيو ١٩٣٣م .

٢٤ – د. أمل الزياني، البحرين بين الاستقلال السياسي والانطلاق الدولي . ص ٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٤٠ . ط٢ القاهرة . ١٩٧٧م .

٢٥ – الدول الخليجية – دراسة البلدان، الجامعة الأمريكية ١٩٨٤ ص ٣٠٣ .

٢٦ – وثائق دولة الإمارات العربية المتحدة لعام ١٩٧٣م، الجزء الثاني .

تجارة الأبيض في



تجارة الإمارة العيونية

بقلم : الدكتور جاسم ياسين محمد الدرويش

البحرين هو اسم جامع لمنطقة واسعة من البصرة إلى عمان[1]، ومن موانئها في منتصف القرن الخامس الهجري القطيف والزارة والعقير وأوال[2]، وساحلها يعد من أهم المراسي بين عمان والبصرة إذ كان السفر منها إلى الهند على مدار السنة[3]. كما كانت محطة للقوافل البرية القادمة من اليمن إلى العراق[4]، إلا أنها تأثرت هي الأخرى بالظروف التي سادت في منطقة الخليج العربي فأثرت على نشاطها التجاري.

إن أهم حدث تعرضت له بلاد البحرين هو وقوعها تحت السيطرة القرمطية لمدة تقارب القرن ونصف القرن مما كان له أثر سيئ على الحركة التجارية فيها، إذ أن موقف القرامطة العدائي من الخلافة العباسية ثم أعمالهم المشينة ضد الحجاج والمراكز الدينية قد أضرت بسمعتهم كثيراً في العالم الإسلامي وجعلت التجار ينفرون من المجيء

إلى البحرين واستخدام موانئها[٥]، ويبدو أن ذلك دفع القرامطة إلى القيام بعمل مضاد، فاستغلوا ضعف الخلافة وعملوا على وضع نقاط تفتيش حول مراكز التجارة الكبرى في الخليج العربي كعمان وسيراف والبصرة وعلى طرق الحاج المؤدية إلى مكة أيضاً حيث أرغموا التجار على دفع ضرائب لهم مقابل السماح لهم بالمرور[٦].

وبعد انتهاء حكم القرامطة في البحرين[٧] في منتصف القرن الخامس الهجري وقيام إمارة العيونيين فيها[٨] أخذت تستعيد مكانتها في عالم تجارة الخليج العربي وتأخذ حصتها فيها، وقد كانت جزيرة أوال أول من استفاد من هذا التغيير وذلك بسبب موقعها المتاز في الخليج العربي، فيذكر شارح ديوان ابن المقرب أن أوال تحولت بسرعة إلى سوق كبيرة أخذ يقصدها أعداد كبيرة من المسافرين والتجار[٩]، وقد شجع الأمراء العيونيون التجارة إلى بلادهم فقدموا التسهيلات للتجار ووفروا لهم الحماية والأمن، وقد أشار ابن المقرب إلى ذلك بقوله[١٠]:

منا الذي أصبح المجتاز من حلب
إلى العراق إلى نجد إلى أدما

وكان من رعاية الأمراء العيونيين للتجار أن سفينة قاصدة البحرين في تجارة لها انكسرت قرب الساحل في إمارة الفضل بن عبد الله العيوني (ت حوالي ٥٣٤هـ/١١٣٩م) فأرسل الأمير الفضل من أنقذ التجار واستخرج قسماً من الأموال من البحر ثم عوضهم عن كل ما فقدوه في سفينتهم وكان من جملتهم تاجر بلغت قيمة بضاعته مائة ألف توجه بها إلى البصرة ثم باعها بأرباح مضاعفة[١١]، وكان من جراء هذه السياسة أن نشطت تجارة البحرين وكثر دخلها وتحصل لدى الأمراء العيونيين الأموال الكثيرة[١٢] كما أصبحت جزيرة أوال المتوسطة لمغاصات اللؤلؤ[١٣]، يقصدها أعداد كبيرة من التجار وبصحبتهم أعداد كبيرة من عمال الغوص إذ وفر لهم الأمراء العيونيون كل ما يحتاجونه من الأمن والرعاية، وقد وصفهم الإدريسي عند حديثه عن اللؤلؤ في جزيرة أوال بأن الأمراء هناك كانوا يشرفون على عملية غربلة اللؤلؤ واستخراج الجيد من الرديء ويحضرون أيضاً عملية البيع والشراء وكان (*العدل لا يفارقهم في البيع والشراء حتى لا يضام أحد ولا يشكو ظلما*)[١٤].

وفي هذا العهد أيضاً نشطت التجارة البرية بين اليمن والعراق عبر البحرين، فيشير ابن المجاور عن هشام ابن مسعود النجراني في دار الإمارة بنجران أن هذا (*الطريق ينفذ إلى الكوفة أو قال إلى البصرة وكان أهل اليمن يسافرون إليه بالحمير وعليهم الأديم إلى إحدى هاتين المدينتين في العام مرتين قلت : وعلى أي الأمكنة كان مسلكهم قال على اليمامة والحسا والبصرة قلت ومتى كان عهدكم بعمرانه قال سنة عشرين وخمسمائة*)(١٥)، وقد كان لقوة الأمراء العيونيين في هذه الحقبة وسيطرتهم على نشاط البدو وقطاع الطرق أثر في سيادة الأمن فيها(١٦).

إن نشاط تجارة البحرين وازدهارها الاقتصادي في ظل الإمارة العيونية دفع بعض الطامعين من حكام جزيرة قيس للسيطرة عليها أو الحصول على نصيب منها، فشنوا عليها سلسلة من الغارات ابتداءً من بداية القرن السادس الهجري حتى تمكنوا في عهد الأمير العيوني الفضل بن محمد (حوالي ٦٠٦ - ٦١٦هـ/١٢٠٩ - ١٢١٩م) من فرض شروطهم عليه وإجباره على توقيع معاهدة حصلوا بموجبها على امتيازات واسعة في بلاد البحرين وفرض ضرائب غير متوازنة على واردات البلاد(١٧).

ويبدو أن نشاط البحرين التجاري لم يتأثر كثيراً بالانقسام الداخلي الذي أصاب الإمارة العيونية وضعف حكامها، فقد استمر التجار يزاولون نقل سلعهم إلى العراق وبالعكس كما استمرت رحلاتهم إلى الهند، فالشاعر ابن المقرب العيوني كان يتردد إلى العراق في تجارة له إذ اشتغل بتجارة الحديد من بغداد إلى البحرين(١٨)، كما يروي لنا شفاعته للعديد من التجار بسبب تردده على ولاة العراق آنذاك، فقد تنكر أحد الوكلاء في البصرة لأموال عدد من التجار البحارنة بعد أن أودعوها إياه فتوسطوا إلى ابن المقرب ليرفع الأمر إلى أميرها شمس الدين باتكين (ت ٦٤٠هـ/١٢٤٢م) الذي كانت علاقته بالشاعر وثيقة إذ امتدحه في أكثر من قصيدة من ديوانه، وقد أنصفهم الأمير باتكين من الرجل الوكيل واسترجع حقوقهم، كما كان التجار يترددون إلى البحرين لشراء اللآلئ من مغاصاتها المشهورة والخيول العربية من بواديها، فيروي الحسيني أن الأمير زنكي بن تكلا صاحب فارس (٥٥٨ - ٥٧١هـ/١١٦٢ - ١١٧٥م) عندما أرسل هدايا إلى السلطان

السلجوقي أرسلان شاهين طغرل (٥٥٦ - ٥٧٠هـ/ ١١٦١ - ١١٧٤م) اشتراها من أسواق القطيف في البحرين[١٩] مما يدل على شهرتها وسعة أسواقها، ومما يذكر أيضاً أن موفق الدين الأربلي العالم المشهور باللغة العربية وعروضها كان قد ولد في البحرين وتعلم علوم اللغة فيها وذلك لأن والده كان يقيم فيها ويشتغل بتجارة اللؤلؤ والجواهر بين البحرين والعراق[٢٠].

وفي ظل ازدهار تجارة البحرين توسعت مدينة القطيف وزاد عدد سكانها[٢١]، واتخذها الأمراء العيونيون مقراً لحكمهم[٢٢]، وقد أورد عدد من الجغرافيين العرب أوصافاً للقطيف في هذه الحقبة دالة على توسعها وازدهارها، فقد ذكر الإدريسي بأنها مدينة كبيرة مجاورة للبحر[٢٣]، وعدها بنيامين التطيلي في القرن السادس الهجري بأنها من مدن البحرين المشهورة بالغوص وذكر ارتباطها بالهند[٢٤]، أما ياقوت فقال أنها (*مدينة بالبحرين هي اليوم قصبتها وأعظم مدنها*)[٢٥]، كما وصفها ابن بطوطة بأنها (مدينة كبيرة حسنة ذات نخل كثير)[٢٦]. وأضاف أبو الفدا أن للقطيف (خور من البحر يدخل فيه المراكب الكبار الموسقة في حالة المد والجزر)[٢٧].

مما مر يتبين أن القطيف أصبحت منذ القرن السادس الهجري وفي ظل الأسرة العيونية من أهم مدن البحرين وميناءً كبيراً وسوقاً واسعة يأتيها التجار من مختلف المناطق وخصوصاً من فارس والعراق، كما كانت صلتهم بمصر كبيرة أيضاً، فيذكر الحمداني أن عرب البحرين (*منهم قوم يصلون إلى باب السلطان وصول التجار يجلبون الخيل والأنعام وكرام المهارى واللؤلؤ وأمتعة من أمتعة العراق والهند ويرجعون بأنواع الخيام والأنعام والقماش والسكر وغير ذلك ويكتب لهم بالمسامحة فيردون ويصدرون وبلادهم بلاد زرع وضرع وبر وبحر ولهم متاجر مربحة وواصلهم إلى الهند لا ينقطع*)[٢٨]، وهذا يعني أن تجار البحرين عملوا كوسطاء في كثير من السلع بين فارس والعراق والهند ومصر فيصدرون الخيول واللؤلؤ وأمتعة الهند إلى مصر ويستوردون من هناك السكر والثياب المصرية المشهورة آنذاك بجودتها[٢٩].

ويبدو أن ازدهار تجارة البحرين وتوسعها وخصوصاً منذ نهاية القرن

السادس الهجري فصاعداً يعود إلى عدة عوامل:

١ - الخصومات التي حدثت بين كل من صاحب قيس وهرمز وما أدت إليه من نزاع بينهما والاعتداءات على السفن التجارية العائدة لكل منهما[٣٠] دفع التجار إلى تفضيل ارتياد السواحل العربية وتسبب في ازدهار تجارة البحرين وموانئها .

٢ - ضعف مدينة البصرة[٣١] واضطراب الأمن فيها أعاد للبحرين نشاطها التجاري السابق[٣٢] إذ تمتعت البحرين في هذه الحقبة بقوة الحكم فيها أيام أميرها محمد ابن أبي الحسين (حوالي ٥٨٥ - ٦٠٣هـ/١١٨٦ - ١٢٠٦م) كما أن الحقبة التي أعقبت محمد بن أبي الحسين على الرغم من شهودها نوعا من عدم الاستقرار بسبب ضعف الأمراء العيونيين إلا أن الأمراء المتنفذين من بني عامر الذين امتلكوا ناصية القوة في البحرين بعد مقتل محمد بن أبي الحسين قد أخذوا على عاتقهم توفير الأمن وحماية قوافل التجار والحجاج حرصاً على مصالحهم[٣٣]، وهذا ما جعل موانئ البحرين مفتوحة حتى في أشد مراحل ضعف الإمارة العيونية .

٣ - نجاح صلاح الدين الأيوبي في تحديد النفوذ الصليبي وطردهم من البحر الأحمر[٣٤] ثم إلغائه الضرائب التي كانت تفرض على الحاج والتجارة في عيذاب وطريق مكة[٣٥]، كان من العوامل المشجعة للتجار على سلوك طريق البحرين إلى مصر وذلك لقصر طريقه وسهولته ثم لتحاشي ما يفرض من ضرائب ثقيلة في عدن[٣٦]، وهذا ما فتح الباب للتجارة بين البحرين ومصر إذ أصبح التجار البحارنة يصدرون لها ما يأتيهم من الهند وما يستخرجونه من لؤلؤ في سواحلهم ثم يعودون ببضائع مصر إلى بلادهم[٣٧] .

٤ - ظهور المغول في المشرق الإسلامي واجتياحهم لمدنه الواحدة تلو الأخرى وما أشاعوه من خراب في تلك المدن دفع الكثير من أرباب المصالح وأصحاب رؤوس الأموال بالتوجه إلى الأماكن الأكثر أمناً[٣٨]، وهكذا كانت موانئ شرق الجزيرة العربية وجنوبها مراكز جذب مهمة للسكان إذ نرى ازدهار وتوسع كل من البحرين وهرمز وقلهات وظفار وعدن .

٥ - بعد منتصف القرن السابع الهجري لم يعد في بغداد بلاط ولا خلافة التي تعد الموجه الأول لتجارة البلاد بحاجاتها من أسباب الترف والأسلحة وهذا ما أثر بدوره على نشاط مدينتي البصرة والأبلة التجاري .

٦ - العداء الكبير بين كل من دولتي المغول في العراق والمماليك في مصر[٣٩] زاد من ارتباط الأخيرة باعتبارها محور المقاومة الإسلامية ضد المغول، كما شجع المماليك هذه العلاقة وذلك للوقوف بوجه مخططات المغول الرامية إلى ضرب مصر عن طريق تشجيع تجارة الهند عبر الخليج العربي[٤٠]وقد نجحت سياسة المماليك في جذب أمراء البحرين إلى جانبهم منذ وقت مبكر، فالحمداني يشير إلى زيارة وفد من حكام البحرين إلى مصر في دولة الظاهر بيبرس[٤١] (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/١٢٥٩ - ١٢٧٧م) وهذا ما أدى إلى تقوية العلاقات التجارية بينهما .

د. جاسم ياسين محمد الدرويش

كلية التربية - جامعة البصرة

الهوامش

١ - البكري، جزيرة العرب، ياقوت، معجم البلدان ٥٠٦/١، القزويني ، آثار البلاد ص ٧٧ . الحميري، الروض المعطار، ص ٨٢ .

٢ - البكري، جزيرة العرب، ص ٣٨ .

٣ - ابن الساعي، أخبار الخلفاء، ص ١٤١ . القلقشندي، قلائد الجمان، ص ١٢١ .

٤ - الهمداني، صفة جزيرة العرب، ص ٢٥٦ . ناصر خسرو، سفر نامة، ص ١٤ . ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٢١٦ .

٥ - الإحسائي، تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣)، ص ٢٥٧ .

٦ - ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٣٣ .

٧ - عن نهاية القرامطة في البحرين أنظر : جاسم الدرويش، نهاية القرامطة والصراع على السلطة في البحرين قبيل قيام الإمارة العيونية، مجلة الوثيقة، العدد (٣٧) لسنة ٢٠٠٠م، ص ١٣٨ - ١٥٥ .

٨ - كان قيام الإمارة العيونية على يد عبد الله بن علي العيوني عام ٤٦٧هـ/١٠٧٤م واستمرت حتى مقتل آخر أمرائها محمد بن محمد العيوني على يد الأتابك أبو بكر السلغري عام ٦٣٦هـ/١٢٣٨م أنظر الإحسائي، تحفة المستفيد، ص ٩٨ وما بعدها .

٩ - تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣)، ص ٢٥٧ .

١٠ - ديوان ابن المقرب، ص ٥٤٨ .

١١ - ن.م.، ص ٥٤١ - ٥٤٢، هامش (٩٩) .

١٢ - ن.م.، ص ٥٤١، هامش (١٠١) .

١٣ - ابن المجاور تاريخ المستبصر، ص ٣٠٠ .

١٤ - الإدريسي، جزيرة العرب، ص ٥٤ - ٥٥ .

١٥ - ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

١٦ - الإحسائي، تحفة المستفيد، ص ١٠٢ .

١٧ – أنظر هجمات حكام جزيرة قيس على البحرين وعن المعاهدة بينهما، تحفة المستفيد، ملحق رقم (٣)، ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

١٨ – ديوان ابن المقرب، ص ٢٢٤، هامش (١) .

١٩ – الحسيني، زبدة التواريخ، ص ٢٦٩ .

٢٠ – ابن أبي عذيبة، إنسان العيون في مشاهير سادس القرون (مخطوطة في المتحف العراقي برقم ٢٩٥) ورقة ٢٢٢ – ٢٢٦ .

٢١ – يشير شارح ديوان ابن المقرب عند حديثه عن حرب الأمير محمد بن أبي الحسين مع أهل القطيف أن عدد سكانها كان كبيراً، تحفة المستفيد ملحق رقم (٣)، ص ٢٦٨ .

٢٢ – ن.م.، ص ٢٧٠ وما بعدها .

٢٣ – الإدريسي، جزيرة العرب، ص ٥٠ .

٢٤ – رحلة بنيامين، ص ١٦٤ .

٢٥ – ياقوت، معجم البلدان، ١٤٣/٤ .

٢٦ – رحلة ابن بطوطة، ص ١٧٧ .

٢٧ – أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ٩٩ .

٢٨ – ابن الساعي، أخبار الخلفاء، ص ١٤١ (عن الحمداني) . أنظر أيضاً : القلقشندي، قلائد الجمان، ص ١٢١ .

٢٩ – بلغ من شهرة الثياب المصرية في البحرين أن الشاعر ابن المقرب أرسل بقصيدة عتاب إلى الأمير مقدم ابن ماجد العيوني لأنه أهدى إليه ثياباً من غير معمول مصر وذكر له فيها أنه لا يلبس إلا ثياب مصر، ديوان ابن المقرب، ص ٥٩ .

٣٠ – ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ٢٦٩ .

٣١ – ابن الأثير الكامل، ٨٠/١٢ .

٣٢ – كانت البحرين تمثل مركزاً هاماً من مراكز التجارة العالمية، ويعتقد أن مدينة جرها ذات الشهرة التجارية أيام اليونان والرومان تقع في البحرين إذ أنها ملتقى طرق القوافل البرية القادمة من الهند ويعتقد أيضاً أن على أنقاضها قامت مدينة القطيف، جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١٧/١ .

٣٣ - الحميدان، إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب جامعة البصرة، العدد (١٥) سنة ١٩٧٩، ص ٨٢ .

٣٤ - لبيب، التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، العدد (٢) سنة ١٩٥٢، ص ٩ .

٣٥ - الأنصاري، دور الفوائد المنظمة في أخبار طريق الحاج ومكة المعظمة، للجزيري ص ٢٦٤ .

٣٦ - أنظر عن الضرائب التي كانت تؤخذ من التجار في عدن وشدتها عليهم، ابن المجاور، تاريخ المستبصر، ص ١٤٠ وما بعدها .

٣٧ - ابن الساعي، أخبار الخلفاء، ص ١٤١ . القلقشندي، قلائد الجمان، ص ١٢١ .

٣٨ - أنظر عن هجمات المغول على بلدان المشرق الإسلامي . ابن الأثير، الكامل، ٣٥٨/١٢ وما بعدها . خصباك، العراق في عهد المغول الإيلخانيين، ص ٧ وما بعدها .

٣٩ - خصباك، العراق في عهد المغول، ص ١٣٣ .

٤٠ - الحميدان، إمارة العصفوريين، ص ٩٧ .

٤١ - القلقشندي، نهاية الأرب، ص ١٠١ .

مصادر ومراجع البحث

١ - ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م) الكامل في التاريخ، بيروت ١٩٦٦م .

٢ - الإحسائي، محمد بن عبد الله، تحفة المستفيد بتاريخ الإحساء في القديم والجديد، مع ملحقاته، أشرف على طبعه وعلق عليه محمد الجاسر، ط ١، ١٣٧٩هـ .

٣ - الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله (ت ٥٦٠هـ/١١٦٤م)، جزيرة العرب من نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، تحقيق الدكتور ابراهيم شوكة، مجلة المجمع العلمي العراقي، المجلد (٢٣) بغداد ١٩٧٣م .

٤ - الأنصاري، عبد القادر بن محمد (كان حيا في ٩٧٦هـ/١٥٦٨م)، دور الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة،الجزيري، القاهرة ١٣٨٤هـ .

٥ - ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة الأنظار .

٦ - البكري، عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٨هـ/١٠٩٤م) جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك، تحقيق عبد الله يوسف الغنيم، الكويت، ١٩٧٧م .

٧ - التطيلي، بنيامين بن يونة الأندلسي (كان حيا في ٥٦٩هـ/١١٧٣م) رحلة بنيامين، ترجمها عن العبرية وعلق على حواشيها عزرا حداد، بغداد ١٩٤٥م .

٨ - الحسيني، بدر الدين علي بن ناصر، (ت بعد سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م)، زبدة التواريخ في أخبار الأمراء والملوك السلجوقية، تحقيق الدكتور محمد نور الدين، ط ٢ بيروت ١٩٨٦م .

٩ - الحميدان، الدكتور عبد اللطيف، إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية، مجلة كلية الآداب جامعة البصرة، العدد (١٥) سنة ١٩٧٩م .

١٠ - الحميري، محمد بن عبد المنعم (ت ٧٢٧هـ/١٣٢٦م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٧٥م .

١١ - ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م)، صورة الأرض، بيروت ١٩٧٩م .

١٢ - خصباك، الدكتور جعفر، العراق في عهد المغول الإيلخانيين، بغداد ١٩٦٨م .

١٣ - الدرويش، الدكتور جاسم ياسين، نهاية القرامطة والصراع على السلطة في البحرين قبيل قيام الإمارة العيونية، مجلة الوثيقة العدد (٣٧) لسنة ٢٠٠٠م .

١٤ - ابن الساعي، علي بن أنجب (ت ٦٧٤هـ/١٢٧٦م)، مختصر أخبار الخلفاء، مصر، ١٣١٠هـ .

١٥ - علي، الدكتور جواد، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، بيروت ١٩٦٦م .

١٦ - أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)، تقويم البلدان، تحقيق ماك كوكين ديسلان، باريس ١٨٤٠م .

١٧ - القزويني، أبو زكريا محمد بن محمود (ت ٦٨٢هـ/١٢٨٣م)، آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت ١٩٦٠م .

١٨ - القلقشندي، أبو العباس أحمد علي (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)، قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، حققه إبراهيم الإبياري القاهرة ١٩٦٢م .

١٩ - القلقشندي، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب تحقيق علي الخاقاني، بغداد ١٩٥٨م .

٢٠ - لبيب، الدكتور صبحي، التجارة الكارمية وتجارة مصر في العصور الوسطى، المجلة التاريخية المصرية، مجلد (٤) العدد (٢) سنة ١٩٥٢م .

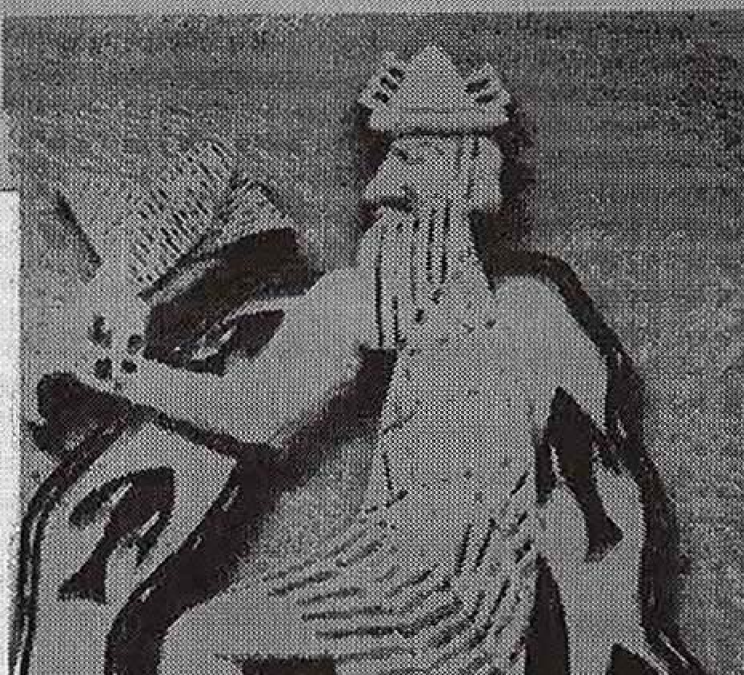
٢١ - ابن المجاور، محمد بن مسعود بن علي بن أحمد (كان حياً في ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، تاريخ المستبصر أو صفة بلاد اليمن، اعتنى بتصحيحه أسكر لزفغرين، ليدن ١٩٥٤م .

٢٢ - ابن المقرب، أبو الحسن علي بن المقرب العيوني (ت ٦٣٠هـ/١٢٣٢م)، ديوان ابن المقرب تحقيق عبد الفتاح الحلو، الإحساء ١٩٦٣م .

٢٣ - ناصر، خسرو علوي (ت ٤٨١هـ/١٠٨٨م)، سفر نامه، نقله إلى العربية يحيى الخشاب القاهرة ١٩٤٥م .

٢٤ - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٨م)، معجم البلدان' طهران ١٩٦٥م .

مصادر دراسية



٤٨ . الوثيقة

تاريخ دلمون

"البحرين" في عصورها القديمة

بقلم الدكتور حسين أحمد سلمان

مقدمة

إن مصادر دراسة تاريخ دلمون القديم (Delmun) (البحرين حاليا تنقسم بشكل عام إلى قسمين أو نوعين أحدهما يعتمد المدونات من فترات زمنية مختلفة ولاسيما تلك التي وردت في مصادر المراكز الحضارية المجاورة أو في مصادر الأمم التي سيطرت فترة من الزمن على منطقة الشرق الأدنى القديم وأصبح الخليج العربي يمثل جانباً من اهتماماتها السياسية والاقتصادية، وكذلك الحضارة العربية الإسلامية وهي أكثر المصادر التي تواجه الموضوع مباشرة على الرغم من كون المصادر العربية الإسلامية متأخرة عن زمن هذه الدراسة . ولكن كثيراً من المعلومات وبخاصة الجغرافية وأوجه النشاط الاقتصادي وعلاقات دلمون (البحرين) بالخارج وبعض أسماء الأعلام تفيد بإلقاء الضوء على أحداث ماضي دلمون[1]

أما النوع الثاني من المصادر فيتمثل بالمصادر المادية، وهي برأي علماء الآثار من أوثق المصادر وأدقها ويرتبط موضوع المخلفات الأثرية بأعمال التحريات والتنقيبات الأثرية التي تشهدها منطقة البحرين حالياً .

وكانت هذه الأعمال في غاية الأهمية لأنها عكست أهمية دلمون (Delmun) في عصورها القديمة في منطقة الخليج العربي، كما أن اللقى الأثرية والمخلفات المادية تعكس الصلات الحضارية لدلمون بخارج المنطقة.

ونحن نتلقى معلوماتنا عن دلمون من ثلاثة مناهل هي :

١ - الوثائق المسمارية (Cuneiform Texts) العراقية القديمة.

٢ - المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) .

٣ - المصادر العربية الإسلامية .

١ - الوثائق المسمارية (Cuneiform Texts) العراقية القديمة

إن الوثائق المسمارية تمثل أقدم وأوفى المصادر القديمة في الكشف عن جوانب تاريخ دلمون القديم ،كما أنها تؤكد عمق الصلات التاريخية البعيدة المدى بين بلاد وادي الرافدين ودلمون[٢] . إن النصوص المسمارية التي تتعرض لذكر دلمون كثيرة ومتنوعة كما أنها تغطي فترة زمنية طويلة من الأحداث تمتد لأكثر من (٢٠٠٠ سنة قبل الميلاد) . إن أقدم النصوص المسمارية التي نجد فيها إشارات واضحة لدلمون ترجع إلى حدود عام (٢٥٠٠ ق.م) . وتختلف موضوعات النصوص المسمارية التي تتطرق إلى ذكر دلمون. فمنها نصوص ترتبط بالمعتقدات الدينية وبشكل خاص الأساطير الدينية إضافة إلى النصوص التاريخية والاقتصادية التي تسجل النشاطات المالية والتجارية لدلمون مع المناطق المجاورة

ولكن لفترات زمنية محدودة على عكس النصوص الدينية فإنها لا تلتزم فترة زمنية أو حضارية محددة. ومن الأساطير الدينية السومرية التي يرد فيها ذكر دلمون، أسطورة (أنكي وننخرساك) أي (الفردوس) حيث يرد فيها ما يلي :

إن دلمون أرض طاهرة وأرض لا ينعق فيها غراب وأسودها لا تفترس وذئابها لا تأكل الحمل وأرضها خالية من الآفات والحيوانات المفترسة وأناسها لا يعرفون المرض ولا الشيخوخة ولكن يعوزها الماء وعند ذلك تفجرت منها عيون الماء العذبة بأمر الإله أنكي ولتكن رصيفاً (ميناء) لسفن سومر[٣]

ومن أحداث هذه الأسطورة أيضاً أن الإلهة ننخرساك تعمد على خلق الإله (أنشاك – أنزاك) الذي قدر له أن يكون إلاهاً وسيداً لدلمون[٤] . ولهذا الإله أهمية كبيرة بعد اكتشاف حجرة ربما حجرة أساس في البحرين تحمل كتابة مسمارية مضمونها ما يلي :

قصر ريموم خادم الإله أنزاك، رجل (قبيلة) كاروم (أجاروم)[٥]

وتعكس هذه الأسطورة طبيعة العلاقة ما بين الدلمونيين والسومريين . وتتأكد صفة الجنة على دلمون لكونها موطن الآلهة من أسطورة سومرية أخرى هي على الأرجح الأصل لأسطورة الطوفان(Flood) البابلية، ويبدو أن (أتونا بشتم) في أسطورة الطوفان البابلية هو نفسه في أسطورة الطوفان السومرية ولكن باسم (زيوسدرا) الذي كان مطيعاً للآلهة وراعياً لمصالحها، ونفذ أوامرها ببناء الفُلك الذي أنقذ البشرية من الطوفان وبناءً على فعلته هذه منحته الآلهة الخلود (حياة مثل الآلهة) ونقل إلى دلمون المكان الذي تشرق منه الشمس وهكذا تتفق هذه الأسطورة مع سابقتها في تعيين الفردوس بأرض دلمون[٦] . وفي أسطورة (جلجامش وأرض الحياة) يعتقد أن جلجامش بعد أن عرف أن مصيره الموت قرر السفر إلى أرض الحياة، ويعتقد أن تكون وجهة سفر جلجامش نحو بلاد دلمون لأنها أرض الحياة الأبدية وموطن الآلهة[٧] . وفي ترنيمة دينية على لسان الإلهة عشتار[٨] ما يلي:

"في أوربيت (معبد) دلمون يعودلي" [٩]

وتعكس هذه الترنيمة علاقات متطورة بدلمون . ففي مدينة أور شيد معبد خاص بالدلمونيين وهي إشارة صريحة إلى جالية دلمونية كبيرة كانت ترعى المصالح التجارية بين أور ودلمون ونظراً لأهميتها ، وأهمية نشاطاتها فقد أحاطتها الإلهة عشتار بحمايتها[١٠] .

وفي نصوص دينية أخرى نجد المكانة الاقتصادية لدلمون ففي قصيدة "أنكي ونظام العالم" نقرأ:

بلاد مكان ودلمون توجهت
بأبصارها
إليَّ (أنا) ***أنكي وملأت قوارب***
دلمون وحملت قوارب مكان
بكل
سقتها ونقلت قوارب ماكليوم
(نوع القوارب)
الذهب والفضة من ميلوخا إلى
نفر [١١]
لأجل أنليل سيد جميع العالم .

إذن فدلمون ومكان وميلوخا تقع جميعاً في الخليج العربي ، ويتم الوصول إليها بواسطة ملاحين متمرسين وأصحاب خطوط نقل بحرية . ويتضح ذلك من خلال قائمة بأسماء خطوط الملاحة أو مراكز الموانئ التي أوردتها النصوص المسمارية .

"قارب ماري، قارب آشور، قارب آكد، قارب دلمون، قارب مكان، قارب ميلوخا" [١٢] .

أما النصوص المسمارية التاريخية والاقتصادية فهي لا تقل شأناً عن النصوص الدينية في الإشارة إلى تاريخ دلمون (البحرين) القديم . فمن عهد (أورنانشة) مؤسس سلالة لجش الأولى (٢٤٥٠ق.م) لدينا نص مسماري يشير إلى الصلات التجارية بدلمون ***"وجلبت قوارب دلمون الخشب"*** [١٣] .

ويبدو أن ثراء دلمون وتوافر المواد الأولية التي يندر وجودها في العراق القديم قد دفع الحكام العراقيين القدماء إلى السعي لتعزيز أواصر الصلة والصداقة معها . كما فعل سرجون الأكدي (٢٣٧١ق.م)[١٤] وحفيده (نرام - سين) (٢٢٩١ - ٢٢٥٥ق.م) ونشير بهذا الخصوص إلى رسالتين هامتين جاءتانا من العهد الكشي (١٥٠٠ق.م) تؤكدان على استمرار الصلات التجارية مع دلمون[١٥] . ويمثل نص سرجون الثاني الأشوري (أواخر القرن الثامن قبل الميلاد) دليلاً

قوياً في كون دلمون هي البحرين حيث يرد في النص :

أوبيري ملك دلمون الذي يعيش مثل السمكة على بعد (٣٠ بيرو) في[١٦] وسط البحر الذي تشرق منه الشمس[١٧]

كذلك وردت دلمون في النصوص التذكارية للملك الأشوري سنحاريب مطلع القرن السابع قبل الميلاد "ملك ملوك دلمون ومكان وميلوخا"[١٨]

كذلك تطرقت النصوص الاقتصادية المسمارية إلى أشكال النشاطات التجارية لدلمون مع العراق القديم بشكل خاص ومنطقة الشرق الأدنى بشكل عام[١٩] .

وكانت مدينة أور عاصمة سلالة أور الثالثة (٢١١٣ - ٢٠٠٦ق.م) تحتل مركز الصدارة في تجارة دلمون وبقيت محافظة على نشاطها ذلك إلى فترات لاحقة ، وأهم المواد التي استوردتها أور من دلمون الحجر واللؤلؤ (عيون السمك) والتمر والعقيق واللازورد والفضة والذهب ومشط العاج[٢٠] .

وعلى الرغم أن هدف الرحلة التجارية كان دلمون، لكن الوثائق المسمارية تقرن بعض المواد بمكان وميلوخا وحتى أفغانستان مما يفيد أن دلمون كانت سوقاً رئيسياً لتجارة الخليج العربي في مطلع الألف الثانية قبل الميلاد وخاصة بعد سقوط سلالة أور الثالثة (٢٠٠٦ق.م) حيث كانت تتجمع في سوقها المواد التجارية من الأماكن البعيدة مثل مكان وميلوخا وأفغانستان وبعد ذلك تكون في متناول أيدي التجار العراقيين .

إن حجم التجارة الخارجية بين أور ودلمون في فترة العهد البابلي القديم (الألف الثانية قبل الميلاد) تجعل من أور وتجارتها الخارجية كأنها مقصورة على دلمون[٢١] ففي الوقت الذي وجد العراقيون في دلمون فيضاً من اللؤلؤ والأحجار الجديدة والأخشاب والنحاس والعاج ، وجدوا في هذه الأسواق حاجة ملحة لمنتجاتهم الفائضة والتي تتمثل في الثروات الزراعية والحيوانية والتي يأتي في مقدمتها الحبوب والزيوت والجلود وهي مواد تفتقر إليها دلمون ومنطقة الخليج العرب .

لذلك نجد غالبية النصوص الاقتصادية المسمارية تشير إلى عملية تبادل سلعي في التجارة بين الطرفين .

ولكن المواد المختلفة الداخلة في عملية التبادل التجاري كانت تقيَّم على أساس الفضة .

وفيما يلي ترجمة لنص مسماري يشير إلى ذلك :

٢٥ مَن من الفضة (قيمة ٥ كور (Gur) من الزيت و٣٠ رداء اقترض لوميشلام - ناونيكيرس - سانساكرأسمال للشركة من (أور - ننما - كا) لرحلة إلى دلمون لشراء النحاس . بعد انتهاء الرحلة بسلام سوف لن يتحمل (الدائن) أية مسئولية للخسائر التجارية التي قد يتكبدها المدينان، لقد اتفق (المدينان) أن يرضيا (أور - ننما - كا) بأربعة منات من النحاس لكل شيقل من الفضة[٢٢]

ومثلما ذهب العراقيون القدماء إلى دلمون لغرض التجارة ، فإن الدلمونيين قد عرفتهم المدن العراقية القديمة ، فهناك أحد النصوص المسمارية يشير إلى أن بعض الدلمونيين قد وصلوا بابل لاستلام الشعير، واسم أحدهم اسمٌ دلموني نموذجي هو (آنزاك - دكامل) حيث يذكرنا باسم إله دلمون المحلي (آنزاك)[٢٣] .

ونظراً لكون جميع المؤشرات تفيد بأن جزر البحرين كانت في موقع اقتصادي متميز تتوفر عندها الخيرات اللازمة وتشرف على طريق التجارة الرئيسي في الخليج العربي فقد هيأ ذلك الفرصة لتكون في مركز البلاد .

٢ - المصادر الكلاسيكية (اليونانية والرومانية)

نقصد بالمصادر الكلاسيكية التراث المدون الذي تركه لنا اليونان والرومان .

وتغطي هذه المصادر فترة طويلة تمتد ما بين القرن الخامس قبل الميلاد وتنتهي بحدود القرن الثالث الميلادي

وبالتحديد بكتابات المؤرخ الروماني (أميانوس مرسيلينيوس)[٢٤] .

وتختلف الموضوعات التي تناولها الكتّاب الإغريق والرومان عند حديثهم عن دلمون (البحرين) بشكل خاص ومنطقة الخليج العربي بشكل عام، بحكم اهتمامهم واختصاصاتهم فمنهم المؤرخ والجغرافي وعالم الطبيعة . وعلى الرغم مما عرف عن اليونانيين من تقدم كبير في العلوم والمعارف والفلسفة وتقصي الحقائق بروح رياضية عالية . فإن ذلك لم يصل إلى حجم المصالح الاقتصادية التي سعى لتحقيقها الإسكندر الأكبر (٣٣٦ – ٣٢٣ق.م) بفتوحاته الواسعة للشرق . لذلك فإن مؤلفات المؤرخين الإغريق آنذاك لبت طموحات القادة السياسيين الذين هدفوا لإقامة دولة عالمية تحت زعامتهم . ولكن مؤلفات الإغريق شأنها شأن العديد من التراث الإنساني المدون القديم فقد معظمها ولم يبق منها سوى النذر اليسير أو ما حفظه وكتبه بعض من عاشوا بقايا هذه المؤلفات فنقلوا عنها ، لذلك نعرف أسماء مؤلفين يونان من خلال كتابات مؤرخين يونان أو رومان لاحقين نسبوا بعض المعلومات التي وردت في تسجيلاتهم إلى أولئك الرواد الأوائل .

لقد عرف اهتمام اليونان والرومان منذ فجر تاريخهم بالبحر ونشاطاته واستكشاف طرقه التي توصلهم بمراكز الحضارات الأخرى أو بالأسواق التجارية .

لذلك سعوا بنشاط دائب لاستكشاف الطرق البحرية التي توصلهم إلى الخليج العربي . ومن خلال هذا السعي وصلتنا مدونات عن السواحل العربية والجزر الخليجية والسكان وحياتهم ونشاطاتهم ، وصفات المناطق المختلفة من الناحيتين الجغرافية والطبيعية[٢٥] .

وهكذا يتضح أن سعي الإسكندر المقدوني لاستكشاف جزر الخليج العربي كان في واقعة رغبة جامحة للسيطرة على هذه الجزر وخيراتها حيث يفوح منها أريج العطور ورائحة الطيوب الزكية[٢٦] . إضافة إلى ذلك فإن منطقة الخليج العربي وخاصة البحرين لم تعرف طوال تاريخها الطويل القديم مستعمراً أو فاتحاً أو غازياً بل كانت الحرية رمز الحياة فيها . وهذا ما قاله الجرهائيون (لانطيوخس السلوقي) (٢٠٥ق.م) عندما قصد محاربتهم واحتلال مدينتهم :

"الحرية والسلام الأبدي الذي ننعم بها هي من فضل الآلهة علينا"[٢٧]

ولم يخف المؤرخ أريان (Arrian) (٩٥ – ١٧٥م) ذلك عندما ذكر في مؤلفاته أن جزر الخليج العربي ومنها البحرين قد حافظت على طريقها ولم تخضع لمشيئة الإسكندر المقدوني[٢٨].

ويخبرنا أريان أيضاً عن أرستوبولس (Aristobeules)الرجل العسكري الذي كان موضع ثقة الإسكندر والخبير في الأمور الجغرافية والقضايا المتعلقة بالتاريخ الطبيعي بأن الإسكندر الكبير أرسل ثلاثين سفينة بقيادة أرخياس (Archias) لتتحرى له طريق الرحلات البحرية الساحلية فبلغت هذه الرحلة الاستكشافية إلى حد جزيرة تايلوس (Tylus) (البحرين)، وعادت ثم خرج أندروشينيس (Androsthenes) بثلاثين سفينة أخرى أيضاً ويبدو أنه لم يصل لأبعد من جزيرة (تايلوس).

لذلك أمر الإسكندر بخروج رحلة استكشافية ثالثة بثلاثين سفينة أيضاً وبقيادة (هيرون) ويبدو أن هذا القائد وصل إلى نقطة أبعد من جزيرة تايلوس (Tylos)[٢٩] ويقول (اريستوبولس) أن الإسكندر المقدوني هو الذي أمر أن تسمى البحرين باسم تايلوس (Tylos)[٣٠] وكانت جزيرة واسعة وعرة لكنها صالحة لاستنبات شجر الفاكهة.

ونقلت هذه المعلومات إلى الإسكندر بواسطة (أرخياس) ومن الآخرين الذين كتبوا حول تايلوس (Tylus) الكاتب ميكاستينس (Megassthenes) الذي عاش في عهد سلوق نيكاتور (٣٢٢ – ٢٨١ق.م) مؤسس الدولة السلوقية، وقد حفظ لنا أريان وسترابو (٦٤ق.م – ١٩م) بعضاً من مؤلفاته التي فقد معظمها[٣١]. وإراتوسثينس (Eratosthenes) (٢٧٦ – ١٩٤ق.م) الجغرافي والذي اعتمد عليه سترابو (Strabu) وأخذ كثيراً من معلوماته عن الخليج العربي وجزيرة البحرين. ولكن (سترابو) ينفرد من بين الكتاب الكلاسيكيين بتسمية الخليج بالخليج العربي (Sinus Arabis)[٣٢]. ويضيف بأن في جزيرة تايلوس (Tylus) مدينة تسمى باسمها وتبعد عن مدينة (طريدون)[٣٣] بمسافة تقطعها السفن بعشرة أيام[٣٤] كذلك يشير "بليني" الأكبر (Pliny) (٣٤ – ٧٠م) عالم النبات إلى البحرين بـ (تيروس)(Tylos or Tyros)

ويقول عنها أنها لا تبعد سوى خمسين ميلاً عن الجرهاء، على الساحل، وهي ذات شهرة واسعة بوفرة اللؤلؤ وفيها مدينة

بنفس الاسم تليها جزيرة أصغر منها في الحجم تبعد عن رأسها مسافة (١٢,٥ ميل) وذكر أن وراء تيروس (Tyros) بضعة جزر لم يزرها أحد من قبل ويبلغ محيط تيروس (Tyros) حوالي (١١٢,٥ ميل)[٣٥].

وفي حديثه عن طبيعة تيروس (Tyros) يقول : إنها مغطاة في أقسامها الشرقية بالغابات ويفيض عليها الماء في حالة المد . وكل شجرة فيها بحجم شجرة التين ولها أوراق حلوة المذاق بشكل يفوق الوصف وهي شوكية لا يستطيع أي حيوان لمسها .

وفي المناطق السهلية المسطحة من هذه الجزيرة هناك أشجار تحمل الصوف (القطن)، كما يشير إلى وجود أشجار أخرى[٣٦] .

٣ - المصادر العربية الإسلامية

تساهم المصادر العربية الإسلامية في رسم صورة للبحرين، وبخاصة في إطارها الجغرافي والتاريخي وجوانب من نشاطاتها الاقتصادية والتجارية . وفي مقدمة هذه المصادر كُتُب البلدانيين العرب أصحاب الأرض وأكثر الناس خبرة بخصائصها وأشجارها وحيواناتها ومائها . ثم كُتب التاريخ التي يجب أن نكون حذرين من معلوماتها ولاسيما فترة تاريخ البحرين قبيل الإسلام بسبب الطابع الأسطوري الذي يغلب عليها . وذلك لغياب المصادر الأصلية للدراسة، فلم يكن للمؤرخين العرب المسلمين دراية ومعرفة بقراءة اللغات القديمة ولا معرفة بعلم الآثار لينقبوا عن مخلفات الأقدمين إضافة إلى الموقف الفكري الذي طبع مؤلفاتهم والمتمثل بموقفهم من الديانات الوثنية . فياقوت الحموي يذكر أن البحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعمان، وقيل هما قصبة هجر، وقيل هجر قصبة البحرين وفيها عيون ومياه واسعة[٣٧] .

أما سبب تسميتها بالبحرين فيرى ياقوت : "إنما سمُّوا البحرين لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الأحساء وقرى وهجر بينها وبين البحر الأخضر

عشرة فراسخ"[٣٨] . وبهذا فإن ياقوت يتكلم عن بلاد ساحل الخليج العربي ويسميها البحرين . ثم يقول في مكان آخر عن الجزر مقابل ساحل البحرين :

"وأوال بالضم ويروى بالفتح (أوال) جزيرة يحيط بها البحر بناحية البحرين فيها نخل كثير وليمون وبساتين"[٣٩] .

ويبدو أن ياقوت الحموي قد أخذ معلوماته عن البلدانيين الذين سبقوه في التطرق لهذه المواضيع ومن أبرزهم الهمداني الذي يذكر أن :

" مدينة البحرين العظمى هجر وهي سوق بني محارب من عبد القيس وأوال جزيرة في وسط البحر مسيرة يوم في يوم وفيها جميع الحيوان كله إلا السباع"[٤٠] .

وفي مصدر آخر يشير إلى أن البحرين اسم لمنطقة لا مدينة ولا جزيرة

"ثم يلي هذا السقع مغرباً بلاد البحرين ويسمى القوس وهجر، اسم واقع على مجموعة ومن أمصاره الأحساء، وهي القصبة وتعرف بأحساء بني سعد يحيط بها غوطة نخل . والقطيف يحيط بها ساحل البحر وساحل هذا السقع يسمى الخط وإليه تنسب الرياح الخطية، لكنه لا ينبت فيه لأنه مكان للتجار والبضائع"[٤١] .

من ذلك يتضح أن اسم البحرين اسم جامع يطلق على بلاد واسعة في الخليج العربي تمتد من البصرة إلى عمان، وفيها كثير من القصبات والمدن وتشتهر بوفرة مياهها وزروعها وجزيرتها (أوال) التي تتصف بكثرة زروعها وبساتينها عندئذ يمكن القول بأن أوال هي جزيرة البحرين الحالية لكونها الجزيرة الوحيدة في كتب البلدانيين العرب التي تمتلك مواصفات جزيرة البحرين . كذلك تؤكد كتب البلدانيين على كون البحرين من مراكز التجارة المهمة وبخاصة (هجر) مدينة البحرين العظمى . كذلك تربط كتب التاريخ العربي بين البحرين وبين مساكن العرب الأولى "ونزل حسم بن أرم عمان والبحرين"[٤٢] وعندما ينقرض ولد أرم من جميع أرض العرب تبقى بقية من

طسم وجديس "عبروا بعُمان والبحرين واليمامة"[٤٣] . كذلك هاجرت إلى البحرين الكثير من القبائل اليمنية القديمة فبعد مقتل(جديس) هاجرت ربيعة إلى اليمامة والبحرين . وكان في البحرين من وقع إليها من ولد كهلان حين هربوا من سيل العرم[٤٤] .وهكذا توضح لنا كتب البلدانيين العرب والمؤرخين أهمية البحرين في فترة العرب قبيل الإسلام والفترة العربية الإسلامية .

وخلاصة القول أن المصادر المسمارية وكتابات الكلاسيكيين (اليونان والرومان) إضافة إلى كتب البلدانيين العرب والمؤرخين العرب تشكل مصادر أصلية لدراسة تاريخ البحرين القديم، كما أنها تؤكد على الأهمية الاستراتيجية لهذه الجزيرة في وسط الخليج العربي لقرون طوال كمركز تجاري مع البلدان المجاورة . إضافة إلى أن البحرين شهدت اهتماماً خاصاً من لدن الإغريق والرومان على السواء من أجل اكتشاف الطرق البحرية التي توصلهم إلى جزيرة العرب والهند وقد بلغ هذا الاهتمام ذروته أواخر أيام الإسكندر الأكبر الذي كان يخطط لدولة عالمية تربطها مواصلات بحرية وبرية منتظمة .

المقومات الاقتصادية لمجتمع دلمون (البحرين) القديم[٤٥]

قدمت نتائج التقنيات والتحريات الأثرية معلومات مثيرة عن تاريخ وحضارة دلمون، وعن مقومات ونشاطات سكانها وعن صلاتهم بالخارج وأبرز من ذلك كله الكشف عن تفاصيل الحياة اليومية للسكان ومنها جوانب النشاطات الاقتصادية التي اعتمدها الدلمونيون القدماء كمرتكزات صلبة لبنائهم الحضاري وقد ساهمت الكتابات المسمارية للعراقيين القدماء في الكشف أيضاً عن كثير من أوجه النشاطات الاقتصادية لسكان دلمون التي كانت موجهة صوب المراكز التجارية العراقية القديمة، وهي بذلك تقدم شواهد حية عل أعمق الصلات وأقدمها بين العراق ودلمون[٤٦] .

وبموجب هذه المعلومات نتلمس أركان الحياة الاقتصادية بالركائز التالية :-

١ - الصيد البحري . ٢ - التجارة .

٣ - الزراعة .

١ - الصيد البحري

يعد الخليج العربي من البحار النموذجية النادرة في العالم، فيبلغ طوله حولي (٨٥٠كم) وأوسع نقاط عرضه تقترب من (٣٠٠كم) ولكن أعمق نقطة في مياهه لا تتجاوز المائة متر . ويزداد خط عمق المياه كلما تحركنا صوب الجنوب أو صوب شواطئه الشرقية، وتتميز شواطئ الخليج العربي الغربية بضحالة مياهها حيث يتراوح عمقها ما بين (١٠ - ٤٠م) كما تكثر فيه الخلجان والتعرجات مما ساعد على لجوء وسائط النقل القديمة إليها والاحتماء بها عند هبوب العواصف والرياح القوية . ومن خصائص السواحل الغربية للخليج العربي انفتاحها على الأرض العربية دونما عائق يذكر، كما تتوفر في الجزر المتناثرة القريبة منه مصادر المياه العذبة وخاصة في منطقة الهفوف الساحلية وجزر البحرين . كما تتوفر في الخليج العربي حركة رياح مواتية لانتقال السفن الشراعية من مكان إلى آخر . وهكذا مكنت هذه العوامل الدلمونيين من ركوب البحر تجارة وصيداً ونقلاً وتطورت خبراتهم في التعامل مع البحر والاستفادة من مكوناته لدعم مقومات حياتهم الاقتصادية .

تتوفر الأدلة الأثرية على أن صيد البحر شكّل إحدى الركائز القوية لاقتصاد دلمون (البحرين) القديم وبسبب الظروف والخصائص المشجعة لركوب البحر في منطقة البحرين بشكل خاص والخليج العربي بشكل عام فقد انخرط مكان دلمون في نشاطات صيد مختلفة منها صيد اللؤلؤ والأسماك والأصداف والقواقع البحرية[١٧] . ويشكل اللؤلؤ أكثر شجرة في التجارة الخارجية الدلمونية وبقي مستمراً حتى زاحمته زراعة اللؤلؤ اليابانية في السنوات التي أعقبت عام (١٩٣٠م) كما أن الطلب المتزايد على اليد العاملة في الخليج العربي عامة والبحرين خاصة لأغراض الصناعة النفطية أضرت كثيراً بنشاطات

صيد واستخراج اللؤلؤ، عيون السمك لمنطقة الخليج العربي[48] .

ويرد اللؤلؤ من بين المواد التجارية التي كان العراقيون يستوردونها من دلمون وكان اسمه (عيون السمك)[49] ففي عصر لارسا (العصر البابلي القديم) كان بعض التجار يسافرون إلى دلمون (البحرين) لأغراض التجارة والبقاء هناك لفترة معينة ثم العودة محملين بعيون السمك (اللؤلؤ)[50] . ولكن اللؤلؤ مادة عضوية قابلة للتلف لذلك يندر أن يكتشف منه من بين المخلفات الأثرية لمدن العراق القديم ولكن يورد ضمن النصوص المسمارية وعثر على تلال لأصداف قواقع اللؤلؤ في رأس جزيرة البحرين ويبعد الموقع حالياً بمسافة (١كم) عن البحر . وتشير الأدلة الأثرية لهذا الموقع إلى أن الصيد كان متواصلاً فيه إلى حدود (٢٥٠٠ق.م)[51] . ويبدو أن أسرار صيد اللؤلؤ لم تكن خافية على العراقيين القدماء فقد ضمّنوا قصة الطوفان كما يرويها راوتونا بشتم لجلجامش فقرات يستفاد منها عرض الجانب العملي للغواصين من صيادي اللؤلؤ ومن هذه الفقرات مايلي :-

أجل سأبوح لك بسر من أسرار الآلهة
يوجد نبات مثل الشوك ينبت في المياه
إنه كالورد شوكه يخز يديك
كما يفعل الورد[52]

وهكذا اجتمعت منتجات البحر من أسماك وأصداف ولؤلؤ بالإضافة إلى أحياء أخرى يفيض بها الخليج العربي لتشكل بمجموعها أساساً اقتصادياً لمقومات حياة سكان دلمون القدماء، وظفوا جانباً منها لمواجهة قيمة الواردات من السلع الضرورية التي تفتقر إليها منطقتهم .

٢ – التجارة

كانت التجارة ولا تزال أحد المرتكزات القوية لاقتصاد دلمون ومنها تجارة السلع والمواد المنتجة والمتوفرة محلياً وكذلك تجارة المرور أو ما يعرف بتجارة الترانزيت فقد سبق أن أشرنا إلى بعض الخصائص الطبيعية

والجغرافية لمياه الخليج العربي والتي جعلت منه ممراً مائياً مثالياً أمام وسائط النقل البحرية القديمة وبخاصة طريق ساحله الغربي المتاخم لأرض الجزيرة العربية .

وقد اكتسب طريق الخليج العربي أهمية استثنائية في تاريخ الحضارات القديمة لأنه الطريق المائي الوحيد الذي يتيح لحضارة العراق القديم أن تطل من خلاله على العالم الخارجي . وبحدود التاريخ المدون لحضارة العراق القديم تتوفر الأدلة الكافية للقول بأن التكامل الاقتصادي شهد أعلى مستوياته بين العراق وبين دلمون . فمن خلال النصوص المسمارية نجد المعاملات التجارية التي أنجزت بين العراقيين ، فيصدر العراقيون إلى دلمون الزيوت والحبوب والخمور والأقمشة والصناعات الجلدية(٥٣) . وتكشف لنا قائمة المواد المصدرة إلى دلمون الحاجة الفعلية لهذه المواد في دلمون بسبب ظروفها المناخية شبه الصحراوية وضعف إنتاجها الزراعي . ولكن أمر الحصول على هذه المواد تطلب إيجاد السلع والمواد التي بمقدورها إضفاء قيمة الواردات من العراق والتي تجد طلباً عراقياً متزايداً عليها لذلك نقرأ في قائمة المواد المصدرة من دلمون إلى مراكز ومدن العراق المختلفة المواد التالية :-

النحاس ، والأخشاب والأحجار بما فيها بعض أنواع الأحجار الكريمة كالأزور والعقيق والفضة والذهب وبعض الصناعات العاجية والمواد العطرية(٥٤) .

وقد تأكدت الصلات التجارية بين وادي السند وبين الخليج العربي بشكل عام ودلمون بشكل خاص من بقايا مجموعة الأختام الهندية الصنع ، المكتشفة في مراكز الخليج العربي ومنها في فيلكة والبحرين(٥٥) .

وتؤكد ذلك لاحقاً بعض مدونات الكتاب الكلاسيكيين من يونان ورومان(٥٦) ونستطيع تحديد أهمية الجانب الاقتصادي في حياة الدلمونيين من علاقته بنشاطات العراقيين القدماء التجارية(٥٧) حيث تركوا لنا تسجيلات واسعة تكشف عن أهمية دلمون التجارية .

٣ - الزراعة

قد يبدو الحديث عن الزراعة في دلمون (البحرين) بشكل خاص والخليج العربي بشكل عام مثيراً للاستغراب .فدلمون والخليج العربي يشترك مع بقية أقسام الجزيرة العربية في الغزو البحري لمشكلة النقص في مصادر المياه العذبة التي تشكل عصب الحياة الأساسي في المناطق الحارة الجافة والتي تتميز بأغلبية هذه الأقسام بما فيها منطقة الخليج العربي، ولذلك يتمركز الاستيطان في مناطق توفر المياه، وأصبحت المناطق الجبلية وسفوحها ومناطق الواحات والعيون نقاط جذب قوية لتمركز سكان الجزيرة العربية لأنها تضمن مستلزمات البقاء والنماء والتطور . ومثلها كانت مناطق توفر المياه مراكز تجمعات سكانية كثيفة ومجالات رحبة للتطور المادي والفكري كما حدث في ماضي اليمن السعيد فإن مناطق الواحات المتفرقة في أنحاء الجزيرة العربية أصبحت محطات رئيسية على طريق الرحلات التجارية وهجرات القبائل وانتقال الناس من مكان إلى آخر، فقد توفرت لبعض المحطات من الواحات الكبيرة فرص التقدم المادي والبناء الحضاري وذلك ماشهدته دولة تدمر العربية في ماضيها البعيد .

ويكون طبيعياً في مثل هذه الظروف المناخية والبيئية التي اتصفت بها بلاد العرب أن يحرص سكانها أشد الحرص على المياه ويجهدون أنفسهم لابتكار الوسائل اللازمة للمحافظة عليها واستغلال كل قطرة مياه عذبة قبل أن تتبخر بفعل حرارة الجو وتبتلعها رمال الصحراء، ولنا في بقايا منشآت الري التي بناها أهل اليمن خير دليل على ذلك[٥٨] .

وتوارث العرب خبرات الأعمال الإروائية ومعرفة مواطن المياه الحديثة وكان مهندسو الإرواء العرب الذين يُعرفون باسم (القناقن) يتميزون بحذق شديد في معرفة مواطن المياه الجغرافية وكمياتها وبعدها عن سطح الأرض .

وكان بعضهم يقدر وجود المياه الجوفية في الأرض عن طريق الاستماع إلى حركته داخل الأرض(٥٩) .

ويشير شيخ المؤرخين هيرودوتس (٥٨٥ - ٥٢٥ق.م) إلى أن العرب كانوا ينقلون المياه من نهر عظيم في جزيرة العرب خلال أنابيب يصنعونها من الجلود وتسير المياه المنقولة هذه لبضعة أميال لتصل إلى آبار تخزن فيها ولا يعرف مواضع هذه الآبار في بلاد العرب سوى أبنائها(٦٠) . وفي سياق الحديث عن تفنن العرب باستنباط المياه والحرص على كمياتها من الضياع بفعل حرارة الجو أو الغوص في رمال الصحراء نتعرض إلى ذكر نظام إروائي بارع، اشتهر به العرب قديماً وحاضراً وتستند إليه بقايا منشآته القديمة والحالية، ويعرف هذا النظام الإروائي بأسماء مختلفة منها تسمية الأفلاج في الخليج العربي والكهاريز في العراق والفجارة في أقطار المغرب العربي، كما يكشف اسمه في إيران (القناة) عن أصول عربية .

المهم أن عاملين رئيسيين دفعا الناس لابتكار هذا الأسلوب الإروائي أولهما نقص المياه وثانيهما شدة الحرارة التي تعمل على تبخر نسبة عالية من المياه السطحية . والمبدأ الأساسي في عمل هذه المشروعات يقوم على تحويل مصادر المياه الجوفية بعد تعيينها إلى قنوات تشيد من الحجر أو القوالب الفخارية، تنقل حركة المياه من مسارها الطبيعي ضمن الطبقة الصخرية الحاوية لها إلى جهة القناة المشيدة صناعياً لهذا الغرض حيث المساحات المزروعة والقرى والتجمعات السكانية(٦١) .

وكان من بين مكتشفات البعثة الدنماركية التي عملت في حقلي التنقيب والاستكشاف الأثريين لمنطقة الخليج العربي تشخيصها لبقايا قنة صخرية كانت تنقل المياه من وسط هضبة البحرين حيث تتدفق مياه العيون إلى أطرافها المنخفضة عن مستوى قلب الهضبة فقامت عندها بساتين النخيل وأسباب الزراعة(٦٢) .

ومثلما يحتاج بناء الأفلاج إلى خبرة ومعرفة مسار المياه الجوفية يتطلب بناؤها خبرة في معرفة مستويات مسارها لتسمح القناة المشيدة بانسياب المياه فيها أولاً كما يجب ألا يكون

انسيابها (انحدارها) شديداً مما يسبب في الاندفاع القوي للمياه بداخلها ويعرضها للتلف .

كذلك تحتاج هذه القنوات الجوفية إلى عمليات تنظيف وإزالة ما يتجمع في قاعها من أتربة وطمي ورمال وكسر الحجارة بين الحين والآخر ضماناً لسلامتها وسلامة وصول المياه إلى حيث الاستخدامات الإنسانية الواسعة[٦٣] .

إن بقايا المدن والمستوطنات القديمة في البحرين وأقسام الخليج العربي الأخرى تفتقر حالياً إلى أبسط مستلزمات الحياة، وتفترض بداهة توفر الإمكانيات الحياتية في زمن هذه المستوطنات .

وإذا عرفنا بأن مناخ المنطقة لم يشهد تغيراً جوهرياً خلال الخمسة الآلاف سنة الماضية، فعلينا إذن أن نتحرى أسباب هجر هذه المدن والمستوطنات في تقصير الإنسان عن أداء دوره وفعله اللازمين في الطبيعة، ونسوق مثلاً على ذلك بقايا مدينة التاج التي يشخص من أطلالها بقايا سورها الحجري المربع الممتد مسافة (٩٠٠م) وهي تقوم وسط منطقة صحراوية رملية تبعد (٨٠كم) غربي مدينة جبيل الساحلية على الخليج العربي .

ويكفي أن نشير إلى سُمك سورها الحجري الذي يبلغ حوالي (٤م) ومجموع طوله (٢٥كم)، لنستنتج عظم الإمكانيات التي توفرت لسكان المنطقة حتى نجحوا في تشييد هذا الصرح في القرن الثالث قبل الميلاد .

كما اكتشفت بين أنقاضها نصوص بالمسند تؤكد صلاتها الوثيقة بجنوبي الجزيرة العربية[٦٤] . كذلك أورد المؤرخون الكلاسيكيون معلومات مهمة عن مدينة تجارية عظيمة ازدهرت بحدود القرن الثالث قبل الميلاد في أطراف الخليج العربي وهي مدينة الجرداء التي يقول عنها بترارك "القرن الثاني قبل الميلاد" وغدا السبئيون والجردائيون بتجارة المواد العطرية هذه أكثر القبائل كلها شراء لذلك كان لديهم كميات كبيرة من مصنوعات الذهب والفضة كالأسِرّة والموائد الصغيرة والآنية والكئوس، أضف إلى فخامة منازلهم الرائعة . فإن الأبواب والشبابيك والجدران والسقوف مختلفة الألوان بما يرصع فيها من العاج والذهب والفضة

والأحجار الكريمة(٦٥) وبسبب شهرتها ولثرائها توجه لاحتلالها أنطيوخوس الثالث (٢٠٥ق.م) ولكن الجردائيين أغروه بكثرة الهدايا من الأموال والمواد النفيسة فغيَّر رأيه وسار بعيداً عنهم .

وهكذا تلتقي نشاطات الآثاريين والمؤرخين في تأكيد نشاطات إنسانية عظيمة الأهمية في دلمون والخليج العربي ، وشيدت هذه النشاطات مدناً عظيمة وكان من مستلزمات حياتها وديمومة نشاطها توفر مستلزمات الحياة الأساسية من ماء وزرع على الرغم من توفر التجارة لبعض السلع الغذائية التي تفيض بها مراكز أخرى مجاورة .

الدكتور حسين أحمد سلمان
الجامعة المستنصرية/ بغداد

الهوامش

١ – الهاشمي، رضا جواد، المدخل لآثار الخليج العربي، بغداد، ١٩٨٠، ص٢٠ .

٢ – الهاشمي، رضا جواد، جوانب من تاريخ الخليج العربي في ضوء المدونات القديمة، المجلة التاريخية، العدد ٤، ١٩٧٥، بغداد، ص٣٣ – ٧٩ ؛ البدر، سليمان سعدون، منطقة الخليج العربي خلال الألفين الثاني والأول قبل الميلاد، الكويت، ١٩٧٨، ص٦٠ .

٣ – طه باقر، مقدمة في أدب العراق القديم، بغداد، ١٩٧٦، ص٨٨ – ٨٩ .

٤ – J. Pritchard : Ancient Near Eastern Texts (ANET) Princeton, 1969, P. 34-47.

وانظر أيضاً بخصوص هذه الأسطورة : كريمر، صموئيل نوح، السومريون، ترجمة د. فيصل الوائلي، ص٩٦ فما بعدها .

٥ – G. Bibby : Looking for Dilmun (Proof edition book) 1973, P. 36 - 37.

٦ – ANET, P.34.

٧ – S. N. Kramer : The Sumerian, Chicago, 1970. P.281 ff.

٨ – الإلهة عشتار : إلهة الحب والجمال والحرب وسماها السومريون «آينانا) وعرفها الجزريون باسم عشتار أو عشتروت، وعرفها الإغريق باسم أفروديت، والرومان باسم فينوس . أنظر الدباغ، تقي، الفكر الديني القديم، بغداد، ١٩٩٢، ص٢٢٠ .

٩ – ANET, P. 579.

١٠ – الهاشمي، رضا جواد، المدخل لآثار الخليج العربي، ص٢٦ .

١١ – ANET, P. 579.

١٢ – الهاشمي، رضا جواد، المدخل لآثار الخليج العربي، ص٢٦ .

١٣ – P.B. Cornwall : "Two Letters From Dilmun" Jcs, VI, No. 4, P. 137 ff.

١٤ – ANET, P. 119, 268.

١٥ – P.B. Cornwall, (op - cit).

١٦ – البيرو : وهي زمن ساعة بابلية تساوي ضعف الساعة الحالية .

١٧ – D. D. Luclcenbill : Ancient Recorde of Assyria and Babylonia (ARAB) Vol. II, Chicago 1927, P. 36.

١٨ – ANET, P. 290.

١٩ – W.F. Leemans : Foreign Trade in old Babylonian Period, Leiden, Prill, 1960, P. 10.

٢٠ – الهاشمي، رضا جواد، المدخل لآثار الخليج العربي، ص٣٨ .
٢١ – المصدر نفسه، ص٣٩ .
H. Sagges : The Greatness that was Babylon, London, 1962, P. 274. – ٢٢
المن البابلي = ٦٠ شيقل . الشيقل وزن بابلي يعادل (٨٠جم) تقريبا .
Leemans, (op - cit), P. 140 - 142. – ٢٣
٢٤ – آرثر كريستين : إيران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٥٧، ص٢٢٩ .
٢٥ – د. لطفي عبد الوهـــاب يحيى، الجزيرة العربية في المصادر الكلاسيكية، بحث مقدم إلى الندوة العالمية الأولى لدراسة مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الرياض، ١٩٧٧، ص١ .
R. B. Francys Godolphin: The Greek Historians, Two volumes, Newyork, 1942 ; Herodotus, III, 113. – ٢٦
A. Wilson : The Persian Gulf, London, 1921, P.46. – ٢٧
The Greek Historian : (op - cit) ; Arians, Anabasis of Alexander and Indica, Vol II, VII, 19 - 21, 20 - 28. – ٢٨
Arian, (op - cit). – ٢٩
Ibid. – ٣٠
Wilson, (op - cit), P. 43. – ٣١
The Geography of Strabo, London, New york, 1930, VIII, 4 - 18. – ٣٢
٣٣ – طريـــدون : مدينـــــة أثرية لم يحدد موقعها بعد، وهي تقـــع على ما يبـــدو عند فم الفرات في جنوب العراق القديم .
Strabo, (op - cit). – ٣٤
Pliny (23 - 74 A.D) Natural History, Translated by : H. Rockham Loeb, Classical Library, London, 1967. VI, 138. – ٣٥
Ibid, XII, 38 - 39. – ٣٦
٣٧ – الحموي، ياقوت، معجم البلدان، جـ١، طهران، ١٩٦٥، ص٥٠٦ .
٣٨ – المصدر نفسه، ٣٩٥/١ .
٣٩ – المصدر نفسه، ٣٩٥/١ .
٤٠ – الهمداني، صفة جزيرة العرب، مصر، ١٩٥٣، ص١٣٦ .
٤١ – شيخ الربوة، نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، لايبزج، ١٩٢٣، ص٢٢٠ .
٤٢ – الدينوري، أبو حنيفة، الأخبار الطوال، القاهرة، ١٩٦٠، ص٣ .

٤٣ – المصدر نفسه، ص١٤ .

٤٤ – المصدر نفسه، ص١٦ – ١٧ .

٤٥ – حول كون البحرين هي (دلمون القديمة) أنظر : ك. د. سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربي منذ أقدم الأزمنة حتى التحرير العربي، بغداد، ١٩٦٥، ص١٧ .

٤٦ – رضا جواد الهاشمي، النشاط التجاري القديم في الخليج العربي، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد/١٢، ١٩٦٠، ص٥٧ – ٨٦ .

٤٧ – رضا جواد الهاشمي، المقومات الاقتصادية لمجتمع الخليج العربي القديم، مجلة النفط والتنمية، عدد خاص ٧ – ١٨، بغداد/ ١٩٨١، ص٨١ .

٤٨ – Beatrice Cardi : "Ras Alkhaimah, Archaeological Discoveries" . Antiquity, L., 1976, no. 199 - 200.

٤٩ – رضا جواد الهاشمي، النشاط التجاري القديم في الخليج العربي ص٨٤ – ٨٥

٥٠ – G. Bibby : Looking for Dilmun - Proof Edition Book, 1973, PP. 172 - 174.

٥١ – من أجل الاطلاع على قصة الطوفان كاملة راجع : طه باقر، ملحمة جلجامش، بغداد، ١٩٦٢، ص١٠٢ – ١٠٣ .

٥٢ – W. F. Leemans : Foreign Trade in the Old Babylonian Period, Leiden, Brile 1960, P. 19 ff.

٥٣ – Leemans : Ibid.

٥٤ – G. : Bibbs, op, cit, P. 195 ff.

٥٥ – Pliny : Natwal History. Loeb Classical Library London, 1967, #, 138.

٥٦ – رضا جواد الهاشمي، المدخل لآثار الخليج العربي، بغداد ١٩٦٠، ص٨٠ .

٥٧ – Gus Van Beek : "The Rise and Fall of Arabia Felix" Scientific American, 1969, P. 36 ff.

٥٨ – ابن منظور، لسان العرب، مادة قنن، بيروت، ١٩٦٥، ص٣٥٠ .

٥٩ – Herodotus, 7 - 9.

٦٠ – دونالد هولي، عمان ونهضتها الحديثة، مؤسسة ستايسي الدولية، لندن ١٢٨ – ١٣٠ .

٦١ – G. Bibby : Op. cit, P. 67 - 68.

٦٢ – رضا جواد الهاشمي، الأفلاج من مشاريع الإرواء العربية القديمة، مجلة كلية الآداب، العدد ٢٥، ١٩٧٩، ص١٥ – ٤٠ .

٦٣ – مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية، إدارة الآثار والمتاحف، وزارة المعارف، ١٩٧٥، ص٣٧ – ٣٨ .

٦٤ – Strabo, The Geography of Strabo, London, Newyork, 1930, #, 4 - 17.

٦٥ – رضا جواد الهاشمي، المدخل المصدر السابق، ص٥٩ – ٦٠ .

مجتمع الجزيرة العربيّ

بقلم : كمال عبد الرحمن النعيمي

إن من أسس دراسة (أمة ما) هو فهم تاريخها، ويصعب استيعاب هذا التاريخ وإدراك تطوراته الحضارية في السجل البشري دون الاستدلال بالوضع (الاجتماعي/الاقتصادي) المشترك الذي هو سر من أسرار كينونة هذه الأمة، وهو مرآة حضورها، بما يضفيه من حركيات تشخص آليات النمو والازدهار أو التدهور على مر العصور .



وبما أن الأمة العربية مهما اتسعت وتطورت فإن جذورها ضاربة في الجزيرة العربية، لذلك بإمكاننا القول أن مجتمع الجزيرة كان السبّاق إلى تلك التحولات الحضارية التي شملت شتى المناحي من عمران وبناء واقتصاد وأفكار وعلوم، جعلت هذه الجزيرة خزاناً كبيراً لتخرج منه حضارات تمتد إلى مناطق واسعة تملؤ العالم وتسيطر عليه لآلاف السنين، كما أن للجزيرة العربية الفضل بتقديم (أول وأعظم اختراع في العالم) ونقصد بذلك (الزراعة الفنية)، وقدمتها للبشرية قبل (مائة ألف سنة)، ويقول في ذلك المؤرخ المعروف د. أحمد سوسة (فإلى أهل جزيرة العرب إذن نحن والعالم كله مدين للعرب بهذا الاختراع العظيم)[1]، ولكن

ـة فى صدر الإسلام



هذه الحضارة لم تمنع (كما في بقية الحضارات الأخرى) من صياغة المجتمع وفق تقاليد وأعراف وطبائع تشكل سلوكيات (عامة - خاصة) ذات إشكاليات في التركيبات البنائية للمجتمع وبخاصة مراحل ما قبل الأديان السماوية، ولاشك أن هناك جدلية قائمة بين مسألة الحضارات والرقي الاجتماعي، فلا يمكن لشعب متوحش أن يبني حضارة، وهكذا كان للانقلاب (الطبوغرافي/ الاقتصادي) الذي أحدث تدهوراً في الحضارة العربية الدور الخطير في تجزئة مجتمع الجزيرة، فهاجرت قبائل إلى مناطق مجاورة، بينما انتظم الباقي إلى أنموذجين (متناقضين)، فالأول (حضاري/ مدني) والثاني (بدوي/ أهل الوبر)، وفي الوقت الذي تمظهر فيه شكل المجتمع المدني بوعاء اقتصادي (تجارة/ صناعات أولية/ زراعة . . الخ)، بدا واضحاً أن المجتمع البدوي (المناقض) قام على أعمال الرعي قبل كل شيء .

أما اجتماعياً فلم يكن انحسار زمن الحضارات القديمة عن الجزيرة العربية ليشكل ذلك الفراغ الكبير في البنية الاجتماعية، فقد كانت الجزيرة وما تزال تحتفظ بـ (مدنيتها) الخاصة وتحضرها إلى جانب تفوقها في (الآداب/ الفنون/ وبعض العلوم كالطب وغير ذلك)، وأما اقتصادياً فقد كانت (تجارة قريش) تعد واحدة من أشهر التجارات في العالم في ذلك الزمن .

وكما في أي مجتمع قديم في العالم، فقد تشكلت أعراف وتقاليد وعادات اجتماعية مختلفة، فرضتها طبيعة الأرض وتفاوت تضاريسها وغلبة الصحراء على أكثر مساحاتها وما رافق ذلك من مراحل جفاف وجدب، إضافة إلى عوامل اقتصادية أخرى، كل هذه العوامل شكلت خارطة المجتمع الجديد بإحداثيات متنافرة وصلت إلى حد المغالاة، فبرزت (العصبية القبلية) و(الاعتماد على المجتمع الرجولي . . بما في ذلك من إضعاف أو إهمال لدور المرأة في المجتمع)، وتفشت الأمية وبخاصة بين البدو، وانتشرت وتنوعت العبادات الوثنية، وما إلى ذلك من عادات ومعتقدات وأعراف جاء الإسلام فجبُها جميعاً .

والغريب العجيب أن بعض المؤرخين وأغلبهم من الأجانب وكذلك المستشرقين يحلو لهم إطلاق أفكار وآراء

جزافية حينما يصفون جزيرة العرب والإسلام، وهذا ما شكل تناقضاً كبيراً في أقوالهم، فنسمع أحدهم يقول (المستشرق المعروف غابرييلي) - (ولد الإسلام في منطقة من أكثر مناطق العالم القديم (بدائية وتخلفاً) !)[٢]، وعلى عكس ذلك يقول مؤرخ - مستشرق (هنري فوستر) - (فمن هذا الخزين الشعبي - الجزيرة العربية - الذي لا ينضب لإنتاج هذه المجاميع البشرية التي امتدت لاحقاً إلى المناطق المجاورة لتؤسس عليها الحضارات ويسيطروا على العالم لآلاف السنين)[٣]، وهنا لنا الحق أن نسأل المستشرق غابرييلي (كيف يسيطر العرب على العالم حضارياً لآلاف السنين وهم (بدائيون متخلفون) ؟) هل يدري - مثلا بسيطاً - أن سد مأرب تم بناؤه (في القرن الثامن قبل الميلاد) ؟، وهل يعلم أن ارتفاعه كان (١٣٠٠م) وبقي قوياً صامداً لمدة (٢٦٠٠ سنة) بعد إنشائه، وأنه سقى أراضي زراعية واسعة لفترة (١٣٠٠ سنة)[٤]، وهل نحدثه عن (دلمون) جنة البحرين والعالم ! .

لنا أن نقول حقيقة واحدة عرفها العالم (وإن أنكرها الجاحدون) فإن كل شبر في أرض الجزيرة العربية له لسان ويحكي قصة حضارة عظيمة بهرت وأدهشت العالم الذي كان يرقد في غياهب الجهل والتخلف، وحينما ظهر الإسلام فقد ظهر بأرض الحضارات ولكنه أكمل بنوره الوهاج مسيرة الحضارات الكبرى في الجزيرة التي زهت بحلل حضارة جديدة لإنشاء مجتمع فاضل تنتشر من أبجدياته حروف وضاءة تكتب حكاية أمة واحدة بحضارة تليدة، تحولت بفعل الإيمان إلى حضارة إسلامية انطلقت من أرض الجزيرة العربية لتنير ظلمات العالم !.

موقع الجزيرة العربية

إن تقديم لمحة جغرافية عن طبيعة حدود الجزيرة العربية في تلك الأزمنة المضيئة من تاريخها يوضح تجاور حضارتها مع حضارات أخرى، بما يؤمن احتكاكات حضارية وتبادل خبرات وأفكار ورؤى وغير ذلك، وإن كانت الجزيرة هي السباقة - كما قلنا - في ابتكار أعظم الاختراعات وأرقى العمران التي عرفتها البشرية في العهود القديمة . فالجزيرة كانت تتمتع بموقع فريد في وسط العالم القديم (فجنوبها

اليمن، وشماليها الشام وغربيها شرم أيلة وما طردته من السواحل إلى القلزم وفسطاط مصر، وشرقيها عمان والبحرين وكاظمة والبصرة، وموسطها الحجاز وأرض نجد والعروض)[٥] وبهذا الموقِع الفاعل في الحضارة الإنسانية، قُدِّر للجزيرة أن تؤسس وتتواصل مع (التطورات الحضارية العالمية) وتتفوق عليها، مع انفرادها بـ (خصوصية) أهَّلتها للسيطرة على العالم لآلاف السنين، لتصبح مهد الحضارات بشعار (هويتها العربية) وليست كما يزعم الزاعمون بأنها - الجزيرة - لم تكن سوى (صحراء آهلة بالرمال والأفاعي ورياح السموم).

مجتمع الجزيرة قبل الإسلام

لاشك أن الجزيرة تعرضت في عهود قديمة إلى موجات جفاف وقحط بشكل تدريجي منذ انتهاء (الدورة الجليدية الرابعة)، مما جعل بعض القبائل تتوجه إلى شمال الجزيرة أولاً، ثم الهجرة من هناك إلى مناطق الهلال الخصيب، وتتوزع نحو وادي الرافدين ومناطق أخرى، وهكذا انقسم مجتمع الجزيرة إلى (مدني) و (بداوة)، وقد تم تصنيف هذا المجتمع وفق قياسات (اقتصادية/ اجتماعية) إلى:

١ - ملوك أهل المدر.

٢ - الحضر.

٣ - أهل الوبر (البدو)[٦].

ولكن هذا لم يمنع من تقسيم المجتمع نفسه إلى فئات وأصناف أخرى يكون (المال) أو (الجاه) أو (النسب) أو (الحماية) أسساً في بناء الشخصية الاجتماعية العربية في الجزيرة فيقسمها إلى:

١ - الملوك (أو شيوخ العشائر الكبيرة).

٢ - الأثرياء (أصحاب التجارة والأموال).

٣ - الأحرار الصرحاء (ذوو الأنساب الشريفة العالية)[٧].

٤ - الصليبة (أبناء العشيرة ينتسبون إلى جد واحد، يتساوون في الحقوق والواجبات - في المجتمع البدوي -).

٥ - الفقراء (من عامة الناس وبخاصة أولئك الذي لا ينتسبون إلى عشيرة كبيرة أو شرف أو جاه عال).

٦ - الصعاليك (ظاهرة اجتماعية تمخضت عن أسباب، منها (الخلع)[٨] أو (مادي)[٩] أو (اجتماعي)[١٠] كقضايا النسب والجاه وغيرها) .

٧ - الحلفاء/ الموالي (من قبائل عربية لأغراض الحماية وسوى ذلك)[١١] .

٨ - العبيد (عن ثلاث طرق/ الحروب والأسر/ التجارة/ العجز عن إيفاء الديون)[١٢] .

وقد لا تنطبق هذه التصنيفات على مجتمع الجزيرة كافة، فمثلاً في اليمن نجد اختلافاً في بنية التسلسل الهرمي للمجتمع عنه في أي مكان آخر، فينقسم في اليمن إلى:

١ - فئة رجال الدين (الكهنة) - في قمة الهرم -[١٣] .

٢ - السادة والأشراف .

٣ - المحاربون[١٤] .

٤ - التجار .

٥ - الخدم والعبيد والأجراء .

ومن خلال نظرة عامة على هذه التصنيفات التي كانت ترتكز عليها مفاصل المجتمع نجد أن الغالبية هم من الطبقات الاجتماعية الدنيا أو الضعيفة، والذين بدورهم يشكلون قاعدة الهرم دون أية فرصة لتسلقه نحو قمة (الملوك أو الشيوخ) .

فـ (الصرحاء) و(الصليبة) و(الفقراء) و(الصعاليك) و(الموالي) و(العبيد) تجمعهم رابطة (الفقر) كجامع أولي تليه بقية الجوامع الأخرى، بينما تتدرج طبقة (الشيوخ/ الكهان/ الأثرياء/ التجار) تحت قائمة واحدة وإن تفرقت المسببات كـ (المال) أو (الجاه) أو (العقيدة) أو (القوة) وغير ذلك، وهذا ما أسس لأعراف وتقاليد قاسية تتناسب وهذا (التنافر والتناقض الاجتماعي) وناءت الناس تحت إصْرها طويلاً، من ذلك (العصبية القبلية) و (غمط أو طمس حقوق المرأة) وإشكالية (وأد البنات) ومزاولة أشكال التعسف والفساد كالزنى (الرايات القرمزية !) وشرب الخمر واللصوصية وقطع الطرق والغارات التي تشنها قبيلة ضد أخرى، إضافة إلى أخطر وباء جاهلي (عبادة الأوثان) وسوى ذلك مما شاع في عصر قبل الإسلام .

ومن الناحية الاجتماعية من حيث العادات والتقاليد، نكاد لا نجد فارقاً كبيراً بين (الحواضر) و (البوادي)،

فالتعصب القبلي موجود في (مكة) كما في (الطائف)، والعبيد يكثرون في (المدن) وتقل نسبتهم في (البادية) وحقوق المرأة تضعف في (البادية) أكثر من (المدن) وشرب الخمر والزنى والأنصاب والأزلام وما شابه تكثر في (المدن) وتقل في البادية، وعلى كل حال فإحداثيات المجتمع تنتشر على خارطة متشابهة، لتشكل وفقها الأعراف والسنن والتقاليد السائدة .

وللحقيقة (التاريخية/ الإنسانية/ الاجتماعية) ينبغي أن نؤكد أن عصر ما قبل الرسالة لا يجوز تسميته بـ (العصر الجاهلي) فالجهل كلمة قاسية لا تليق بشعب الحضارات، وإنما يمكن تسميته بـ (عصر قبل الإسلام)، كما أن النبي محمد ﷺ قال [**جئت لأتمم مكارم الأخلاق**]، وهذا يؤكد أن الجزيرة العربية كانت مستودعاً للحضارات والعمران والأخلاق، فكرم العربي مشهور في العالم وكذلك شجاعته وصبره وبقية أخلاقه الحميدة .

ولو لم تكن الجزيرة العربية أهلاً لحمل رسالة الإسلام وتبليغها للناس أجمعين، لما كُرِّمت هذه الأرض المقدسة ببعث عدد من الأنبياء فيها، كان آخرهم وخاتمهم نبينا الكريم محمد ﷺ، وأنزل على صدره القرآن الحكيم، وجعله رحمة للعالمين .

مجتمع الجزيرة في الإسلام (صدر الإسلام)

أحدث الإسلام انقلاباً جوهرياً في تكوينات المجتمع في الجزيرة، حينما حوّله من (مجتمع مادي) إلى (مجتمع روحي) قبل كل شيء، وسعى أن يجعله مبنيا على العلم، (فالإسلام بقدر ما هو توجيه للبشرية فهو مصدر الحضارة الإنسانية في الوقت نفسه، ودعوته للحضارة تقوم على أساس من العلم والمعرفة)[١٥]، فكيف يكون الإسلام حضارة إنسانية مالم يؤسس مجتمعا إنسانيا جديداً له القدرة على القيادة والتوجيه ؟، من هنا كان على الإسلام أن يضع النقاط على الحروف، أي لا يترك صغيرة أو كبيرة في ثنايا المجتمع إلا وصححها أو قومها أو ألغاها أو جاء ببديل عنها، أي أنه تدخل في (كل شيء) من أجل خلق نظام أو دستور

اجتماعي له القدرة على السمو عن (إشكالياته السابقة) والنهوض بأعباء (الأمة الإسلامية الجديدة)، من هنا بدأت حملة النور تبث إشعاعها لتنير الجزيرة والعالم .

ولعل أبرز التحولات الاجتماعية التي جاء بها الإسلام تمظهرت في الأمور الآتية :

* **العبادة** – رغم أن بحثنا هذا يناقش القضايا الاجتماعية فقط، بعيداً عن الجوانب (الاقتصادية/ السياسية/ العقائدية/ الفكرية . . الخ)، إلا أن مسألة (العبادة) تأخذ دوراً خطيراً في التحولات الاجتماعية التي أحدثها الإسلام، لذلك ذكرناها أولاً ، فالإسلام نقل المجتمع من عبادة (الأوثان) أو الآلهة المتعددة إلى عبادة إله واحد هو رب السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وهذا ما أسس أمة إسلامية واحدة ومجتمعاً واحداً بطبقة واحدة .

* **المساواة** – كانت مسألة المساواة في مجتمع ما قبل الإسلام تعتبر من الأمور المستحيلة أو شبه المستحيلة، وهذا ما فتّ في عضد المجتمع ومزقه إلى جماعات متنافرة متفاوتة اجتماعياً، ولكن الإسلام تمكن من فرض المساواة على أبناء المجتمع لبناء لبنة أخرى من صرح الحضارة الإنسانية .

وقد أكد القرآن الكريم [**وما خلقكم وما بعثكم إلا كنفس واحدة**][١٦]، وقال رسول الله ﷺ [**الناس سواسية كأسنان المشط**] .

* **العصبية القبلية** – كانت هذه العصبية قد شكلت العديد من الفواصل أو الحواجز التي أبعدت فئة اجتماعية عن أخرى، وأضعفت قدرة المجتمع على التوحد تحت شعار إنساني، فقوض الإسلام هذه الفواصل بتوحيد الأمة بلا فوارق النسب والجاه وسوى ذلك [**كلكم من آدم وآدم من تراب**]، وقال رسول الله ﷺ [**لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى**]، وفي الآية الكريمة إزالة قطعية لكل فارق اجتماعي [**ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم**][١٧] .

* **مكارم الأخلاق** – اتصفت الجزيرة العربية بأنها مدرسة الأخلاق وموئل الحضارة [**تمتد حضارة الجزيرة لأكثر من مائة ألف سنة قبل الميلاد، أي إلى الدورة الجليدية الرابعة**][١٨] ولاشك أن الحضارة تتناسب طردياً مع

الأخلاق، فالبربرية تصنع عالماً بربرياً، والمدنية تصنع عالماً مدنياً، والحضارات هي أساس المدنيات، وعلى مدى آلاف السنين كان العرب في الجزيرة يتخلقون بصفات يندر وجودها في شعوب أخرى، ولكن عصور ما قبل الرسالات كانت بحاجة إلى أخلاقيات إنسانية جديدة، وهذا نقص عام في المجتمع البشري في كل مكان من المعمورة، وذلك بسبب ما يرافق العهود الوثنية من قلة وعي وسوء فهم للدور الإنساني للمجتمع.

وأخلاقيات مجتمع الجزيرة كانت تشكل خصوصيتها وفق ما عرف عن العرب من سلوكيات حميدة إلى درجة أنها سميت (مكارم)، وجاء الرسول ﷺ ليؤكد ذلك بقوله [**إنما جئت لأتمم مكارم الأخلاق**]، ومن مكارم الإسلام [صدق القول/ إفشاء الرحمة والمودة/ الوفاء بالعهد/ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر/ التسامح/ إيفاء الكيل/ توفير العدالة وحرية الرأي/ محاربة الفساد والتفسخ الاجتماعي/ الأمانة/ إطاعة الوالدين/ الإخلاص في العمل/ النهي عن وأد البنات . . وأخيراً وهو المهم إطاعة الله ورسوله وأولي الأمر من المسلمين] .

هذه بعض مكارم الأخلاق التي أصبحت مناراً ونوراً للمجتمع الجديد .

* **المؤاخاة** – لم يكن مجتمع قبل الإسلام في الجزيرة ليقبل مسألة المؤاخاة (فالشيخ يرفض أن يتآخى مع شيخ مثله)، بل كانت الأنانية والفوقية وحب التعالي على الناس بالمناصب والجاهات واردة لدي الطبقات العليا في هرم المجتمع، وحينما جاء الإسلام بنوره (ساوى أولاً بين الناس) ثم (آخى بين المسلمين)، وهل أشهر مؤاخاة في تاريخ البشرية من تلك التي أحدثها الرسول ﷺ بين (المهاجرين والأنصار) في المدينة المنورة ! .

وقد ابتدأ النبي ﷺ هذه الظاهرة الإنسانية بأنه آخى (علياً بن أبي طالب رضي الله عنه) وآخى بين (حمزة رضي الله عنه) و(زيد بن حارثة) وكان ذلك في مكة قبل الهجرة[١٩]، وأكد على ذلك بقوله ﷺ [**إنما المؤمنين إخوة**]، وقال أيضاً ﷺ في حديث آخر [**المؤمن أخو المؤمن**]، وهكذا كان المؤمنون إخوة . . وبتلك الأخوة امتلكوا العالم .

* **إلغاء الرِّق أو تجارة العبيد** – سعى الإسلام إلى توحيد الناس في مستوى اجتماعي واحد وإلغاء الفوارق الطبقية، وكانت الطبقة الدنيا من المجتمع هي فئة العبيد التي لا حول لها ولا قوة، تباع وتشترى كسائر المتاع، فأنقذ الإسلام هذه الفئة من التعسف والظلم والعذاب حينما صهرها في بوتقة المجتمع الإسلامي الجديد مع بقية الفئات الأخرى جاعلاً منها أمة واحدة يتساوى أفرادها في الحقوق والواجبات، ولا فرق بين عبد أو تاجر أو ملك إلا بالتقوى [**ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم**] – الآية السابقة –[20]، ووضّحت هذه الآية الكريمة تفضيل (العبد المؤمن) على (مشرك) ولو كان ملكاً أو تاجراً أو ذا حسب ونسب عاليين، ورفع العبيد إلى مستوى الأحرار [**من قتل عبداً قتلناه، ومن جدعه جدعناه، ومن أخصاه أخصيناه**][21] هكذا قال رسول الله ﷺ مؤكداً القيمة الإنسانية للمجتمع الجديد، وهو تصريح بإلغاء عبودية الإنسان للإنسان، ولعل أبرز دليل على ذلك أن يكون أحد أفراد هذه الفئة (العبيد في السابق) من أصحاب الرسول ﷺ المقربين وهو بلال الحبشي .

* **الإسلام دين علم** – لاشك أن الإسلام كان – ومازال – أوسع وأشهر منبر للعلم، فقد منح البشرية آفاقاً (علمية – معرفية) لم يعرفها العالم سوى عن طريق القرآن الكريم، فقد كانت أولى كلماته (اقرأ) وفي ذلك دلالة على الدور الكبير للمعرفة والعلم في المجتمع الإسلامي [**اقرأ باسم ربك الذي خلق ۝ خلق الإنسان من علق ۝ اقرأ وربك الأكرم ۝ الذي علم بالقلم ۝ علم الإنسان ما لم يعلم**][22]، هكذا كان العلم هو النداء الأول الذي أطلقه القرآن الكريم لإنارة العقل البشري، فالإسلام دعوته للحضارة تقوم على أساس العلم أولاً وقبل كل شيء .

ومن يقرأ القرآن الحكيم يتأكد أن الإسلام دين علم يوسع المدارك ويطور الآفاق المعرفية، بطرق غير تقليدية، بل شمل العلوم كافة، والآية الكريمة [**يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان**][23] تؤكد تفرد القرآن الكريم دون بقية

المصادر بإمكانية (وصول البشر إلى الفضاء الخارجي !) عن طريق العلم .

هكذا كان الإسلام مصدر معرفة وعلم وحضارة أنارت العقول، ومن قرآننا الكريم انطلقت الثورات العلمية والصناعية لتتطور وتملأ العالم أجمع .

☼ **العمل عبادة** - قد يُظَن أن العبادة والعمل يقفان على طرفي نقيض، وربما يكون هذا الظن صحيحاً في مرحلة قبل الإسلام، حيث يكون الكهنة وسدنة بيوت العبادات ومن انشغل في خدمة الأوثان أقل الناس عملاً وإنتاجاً، فلم نسمع بكاهن يعمل خارج حدود المعبد، بل كانت تأتي إليه ثمرات أعمال الناس وجهودها وهو جالس لا يزاول عملاً إنتاجياً، ومفهوم العمل في الإسلام هو مفهوم عام يشمل جميع أنواع الأعمال بضمنها العبادة، التي لا تتعارض مع الإنتاج، فقد حث الإسلام على العمل (الفردي/ الجماعي) ونهى عن الكسل والتكاسل، وجاءت الآية الكريم [**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون**][24] لتؤكد على إسلام (علمي/ عملي)، فالعمل في هذه الآية (عام) سواء (إنتاجي/ علمي/ جهادي/ زراعي/ تجاري . . الخ)، فالرسول ﷺ قد عمل في (الرعي) و (التجارة)، وقد عُـدُت التجارة من قبل النبي ﷺ من أطيب كسب المؤمن، على أن لا تبعد هذه التجارة الإنسان عن ذكر الله [**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**][25]، كما أكد الرسول ﷺ على قيمة العمل والعمال حينما قال [**إعط الأجير أجره قبل أن يجف عرقه**] .

حقوق المرأة وإبراز دورها في المجتمع

كانت المرأة تنوء تحت ثقل تقاليد ما قبل الإسلام، وتعاني إهمالاً واضحاً وتقليل شأن وإضعاف دور في المجتمع، كما كان هذا المجتمع (رجولياً) ليس من مصلحته إعلاء شأن المرأة ومنحها حقوقها نظراً لصعوبة الظروف الحياتية في الجزيرة، التي تتطلب (القوة) و(الصبر) و(مواجهة التحديات اليومية) التي تعاني منها أغلب فئات المجتمع، وهذا ما جعل الرجل سيد الموقف، بينما أهملت المرأة وكأنها قطعة أثاث عتيقة (كانت النساء في الجاهلية تُوَرّث كالمال بعد موت أزواجهن . . !)[26]، فكان

قريب (الزوج الميت) يرث زوجته ! ، وهذا تعسف خطير في حق المرأة وإلغاء دورها الكامل في حق اختيار الزوج المناسب بعد موت زوجها (أي كانت سلعة يرثها أقرباء الميت من الرجال !)، كما أن من معالم طمس شخصية المرأة قبل الإسلام هو حرمانها من (الإرث) فلا ترث أباها مثلاً أسوة بأخوتها من الرجال، فجاءت الآية الكريمة [**للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء . .**][٢٧] لتؤكد حق المرأة في الوراثة .

وهكذا وضع الإسلام لبنة أخرى صحيحة في صرح المجتمع الجديد، فالمرأة بشكل عام كانت أقرب إلى فئة العبيد من كونها لباساً للرجل تستحق الاحترام والمودة، فجاءت الآية الكريمة [**ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة**][٢٨] .

الدعوة إلى الاستقرار والمدنية

كان لابد من توفر عوامل مكانية توحد الجماعات المتفرقة المتباعدة بخاصة في بداية الإسلام، فتعليمات الدين الحنيف كانت تصل إلى الناس بشكل متواصل، وبما أن الإسلام هو منهج وشريعة، فكان تواجد المسلمين في المدن يشكل حضوراً فاعلاً، فـ (الإسلام دين مدني)[٢٩]، وقد قال الرسول ﷺ [**لا جمعة ولا تشريق ولا فطر ولا أضحى إلا في مصر جامع أو مدينة عظيمة**][٣٠] لذلك كان وجود المدن في الجزيرة العربية يمثل حاجة ووعاء يحتوي بداخله مجتمعاً متجانساً في الفكر والوعي والقيم الاجتماعية، وكانت الرسالة الإسلامية في المدن سريعة الاستيعاب سهلة الفهم نظراً لارتفاع نسبة التعليم وقلة الأمية فيها، ويقول الباحث (بينت) (**الإسلام دين تمدن، وله دور فعال في إعادة البناء** التمدني الذي نراه متمثلاً في المدن)[٣١] .

معالجة إشكاليات اجتماعية

لعل واحدة من تلك الإشكاليات التي كان يعاني منها مجتمع قبل الإسلام في الجزيرة هي (وأد البنات)

لأسباب (مادية/ اجتماعية/ خرافية)[٣٢] وقد محا الإسلام بنوره ظلامية هذه الإشكالية، حينما نهى نهياً شديداً عن (وأد البنات) أو قتل الأنفس بدون ذنب [**وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت**][٣٣] هكذا قال القرآن الحكيم، وقال سبحانه وتعالى [**من قتل نفساً بغير ذنب أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً**][٣٤]، وقال تعالى في سورة الأنعام [**ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم**][٣٥].

المسلمون أمة واحدة

ما كان لبشر أن يكونوا أمة واحدة إلا أن يكون لهم (إله واحد) و (دستور واحد) و (قائد واحد)، وقال الله سبحانه وتعالى معرفاً المسلمين [**إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون**][٣٦] وقال تعالى وهو يصف رسوله الكريم [**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**]، فالأمة هي (الإسلام) والإله هو (الله سبحانه وتعالى) والقائد هو (النبي محمد ﷺ)، وقد أكد مؤلف كتاب (المائة الأوائل) الدكتور (ليدل هارت) بأن النبي محمد ﷺ هو أفضل شخصية في تاريخ البشر، لكونه قائداً (دينياً - دنيوياً) من الطراز الأول.

وهكذا كتب للمسلمين (على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وأماكنهم) أن يكونوا أمة فاضلة ومناراً للإنسانية جمعاء، ولذلك كانت الرسالة موجهة للناس كافة، ولم يكن الإسلام (دين العرب) وحسب كما يزعم بعض المستشرقين أمثال (بروكلمان)، بل دين البشرية في كل زمان ومكان، إن الإسلام الذي وصل نوره إلى مشارق الأرض ومغاربها، لهو دليل على أنه دين الرحمة والسماح والمحبة (دين إنساني من الدرجة الأولى)، هكذا أصبح المسلمون أمة واحدة هي بالوقت نفسه أكبر مدرسة إنسانية في العالم.

خاتمة

قُدِّر لمجتمع الجزيرة العربية أن يتشرف بنزول القرآن الكريم على صدر محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وبالذات في مكة المباركة التي صارت قبلة النور في زمن النور، وفي الوقت الذي كانت فيه الجزيرة تتشتت جاء الإسلام فوحدها،

وإذ كانت ضعيفة فقواها، وكانت بحاجة لحياة جديدة فأحياها، ووضع الإسلام صيغاً وأساليب جديدة للمجتمع، أدام (مكارمه) وألغى (مساوئه) بوضع دستور اجتماعي خالد على مر الزمن، ولم تكن هذه التعاليم مرحلية أو بنت وقتها ولكنها شريعة ومنهج ثابت، لم يترك الإسلام صغيرة أو كبيرة في طيات المجتمع إلا وتدخل بها تقويماً أو إلغاءً أو تطويراً كالاستقامة مثلاً، فالاستقامة أساس السلوك [**استقم كما أمرت**][37] هذه هي دعوة الخالق العزيز لنبيه الكريم ﷺ ، وقال تعالى أيضاً في الاستقامة والأخلاق [**ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهْناً على وهْن وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إلي المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً**][38] .

هذا شيء من أخلاق الإسلام، اما الاستقامة فواضحة في الآية الكريمة [**يا بنيَّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور واقصد في مشيك واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير**][39] وهكذا نظم الإسلام المجتمع وفق منهج أخلاقي مثالي خال من [الحسد/ الربا/ أكل مال اليتيم/ الخمر/ الزنى/ الكذب/ الوأد/ التطفيف (في الكيل)/ الغش/ الخيانة/ الغدر/ طمس حقوق المرأة/ قتل النفس بغير ذنب/ عبادة الأوثان .. الخ] .

وهكذا صار مجتمع صدر الإسلام في الجزيرة العربية أنموذجاً (مثالياً - نظيفاً) لأرقى المجتمعات في التاريخ البشري والذي من بعض أخلاقه تقوم أخلاقيات العالم اليوم !

كمال عبد الرحمن النعيمي

الهوامش

١ - الدكتور أحمد سوسة، حضارة وادي الرافدين، دار الرشيد، بغداد، ١٩٨٠ ص١١ .
٢ - شاخت وبوزورث، تراث الإسلام، ترجمة محمد زهير السمهوري، عالم المعرفة، الكويت ١٩٧٨ ص١٠١ .
٣ - هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، ترجمة سليم طه، المكتبة العلمية، بغداد ١٩٨٩ جـ١ ، ص٢.
٤ - مجلة الوعي، مطبوعات الباكستان، العدد (٦) السنة (١)، ص٤١ - ص٤٣ (عن مجلة إسلاميك ريفيو عدد أبريل ١٩٥٣) .
٥ - الهمذاني، صفة جزيرة العرب، طبعة ليدن ١٩٦٨ص١ - د. نجمان ياسين، تطور الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين، بيت الموصل، الموصل ١٩٨٨ ص٣١ .
٦ - ابن سعيد الأندلسي، نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، مكتبة الأقصى، عمان ١٩٨٢ جـ١ ص٧٤ - د. نجمان ياسين، تطور الأوضاع الاقتصادية ص٥٩ .
٧ - د. نجمان ياسين، تطور الأوضاع الاقتصادية، ص٦٠ .
٨ - ريجيس، تاريخ الأدب العربي، تعريب د. ابراهيم الكيلاني، مطبعة الجامعة السورية، دمشق ١٩٥٦ ، جـ١ ص٤١ .
٩ - د. السيد عبد العزيز سالم، تاريخ العرب في عصر الجاهلية، دار النهضة، بيروت١٩٧١ ص٤٤٠ - د. نجمان ياسين، تطور الأوضاع الاقتصادية ص٦٣ .
١٠ - الأصفهاني، الأغاني، دار صعب، بيروت (عن طبعة بولاق الأصلية) بلا تاريخ طبع - مقاتل الطالبين، المكتبة الحيدرية، ط٢، جـ١٣، ص١٥ .
١١ - د. نجمان ياسين، تطور الأوضاع . . . ص٦٠ .
١٢ - أحمد ابراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول، دار الفكر العربي، ط٢، القاهرة، ص٣٧ .
١٣ - د. نجمان ياسين، تطور الأوضاع، ص٦٤ - محمد عبد القادر بافقيه، تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٣ ص٢١٥ .
١٤ - د. جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار العلم للملايين، ط٢، بيروت، جـ٤ ص٥٤٨ .
١٥ - عبد المنعم حمادة، من رواد الفلسفة الإسلامية، ط١ مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٧٣، ص١٥ .
١٦ - سورة لقمان آية ٢٨ .

١٧ - سورة البقرة آية ٢٢١ .
١٨ - د. أحمد سوسة، حضارة وادي الرافدين، ص٥٥ .
١٩ - ابن حبيب، المحبر، تحقيق د. إيلزه ليختن شتيتر، المكتب التجاري، بيروت، ص٧٠ - ص٧١ .
٢٠ - سورة البقرة الآية ٢٢١ .
٢١ - ابن حنبل، المسند، القاهرة ١٣١٣هـ، جـ٥ ص١٢ .
٢٢ - سورة العلق، الآيات (١ - ٥) .
٢٣ - سورة الرحمن، آية ٢٣ .
٢٤ - سورة التوبة، الآية ١٠٥ .
٢٥ - سورة النور، الآية ٣٧ .
٢٦ - مجمع اللغة العربية، معجم ألفاظ القرآن الكريم، دار الشروق، بلا تاريخ ص٧١٨ .
٢٧ - سورة النساء، آية ٧ .
٢٨ - سورة الروم، آية ٢١ .
٢٩ - د. محمد عبد الستار عثمان، المدينة الإسلامية، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ١٩٨٨، ص٦ .
٣٠ - عبد الجبار ناجي، مفهوم المدينة الإسلامية، مجلة المدن العربية، نشر المنظمة العربية للمدن، العدد ١٤/ ١٩٨٤ ص٥٢ - ص٥٣ .
٣١ - د. أحمد كمال زكي، الأساطير دراسة مقارنة، دار العودة، بيروت، ط٢ ١٩٧٩، ص٩٥ .
٣٢ - د. محمد عبد الستار، المدينة الإسلامية . . . ص٧ .
٣٣ - سورة التكوير، آية ٩ .
٣٤ - سورة المائدة، آية ٣٢ .
٣٥ - سورة الأنعام، آية ١٥١ .
٣٦ - سورة الأنبياء، آية ٩٢ .
٣٧ - سورة الشورى، آية ١٥ .
٣٨ - سورة لقمان، الآيتان (١٤ - ١٥) .
٣٩ - سورة لقمان، الآيات (١٧ - ١٨ - ١٩) .

العلاقات بين ... والقوى الأوروبية

بقلم : الدكتور صبري فالح الحمدي

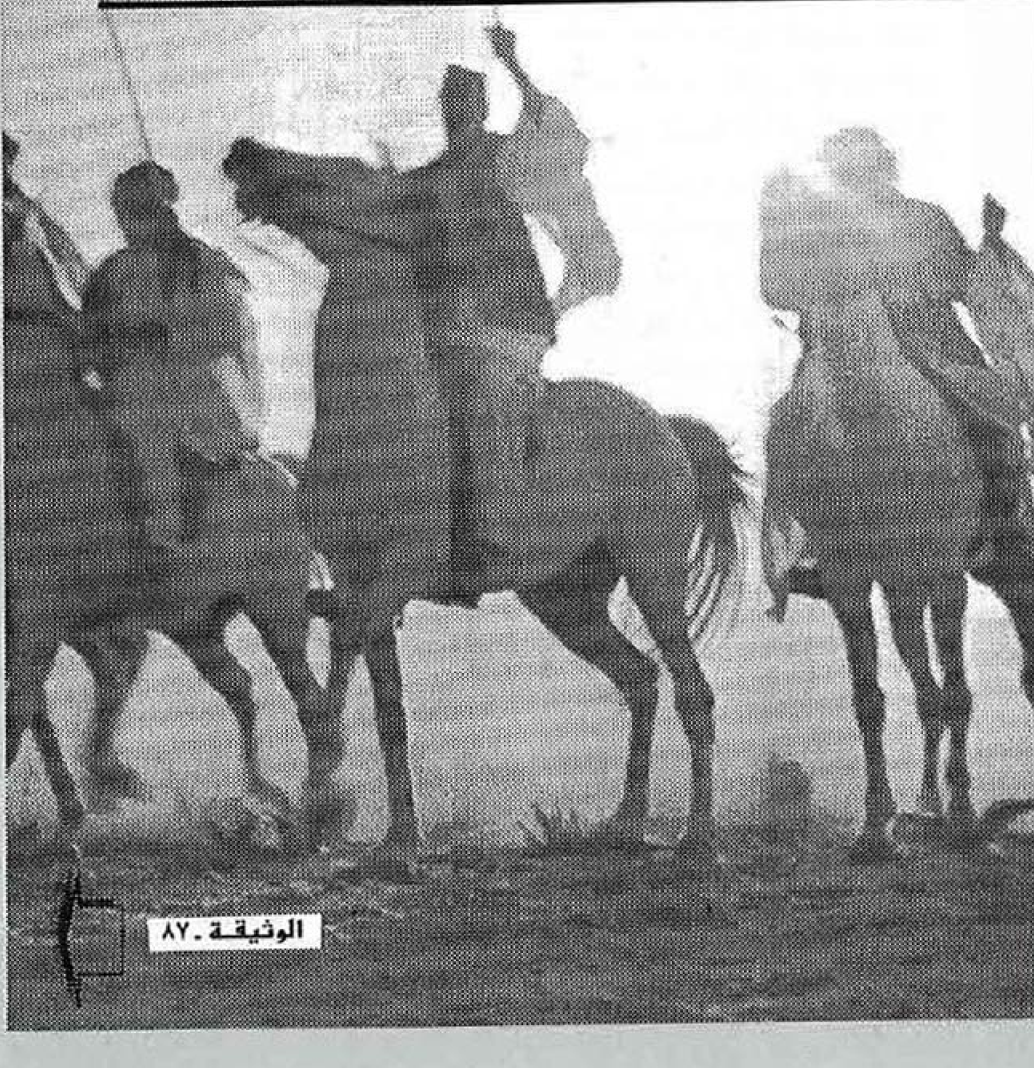
١ – أشراف الحجاز وشركة الهند الشرقية الإنجليزية

أولى الإنجليز البحر الأحمر أهمية خاصة منذ القرن السابع عشر الميلادي بوصفه طريقاً حيوياً لسفنهم المتجهة إلى الهند[١]. إلا أنهم واجهوا مقاومة قوية من قبل الدولة العثمانية التي رفضت السماح للسفن غير الإسلامية بالإبحار شمال ميناء مخا اليمني. واستمر ذلك حتى نهاية القرن المذكور[٢].

بدأت شركة الهند الشرقية[٣] مع إطلالة القرن الثامن عشر، بمحاولات جادة في استخدام طريق البحر الأحمر، لإيصال رسائلها إلى بلاد الهند[٤]، مما أدخلها في حالة تنافس شديد مع فرنسا للسيطرة على

أشراف الحجاز

١٧٠٠ - ١٨٠٠م



الوثيقة ـ ٨٧

مناطق العالم، وكان البحر الأحمر أحد ميادين المنافسة المهمة[٥] . ومما يدل على الوجود الإنجليزي في منطقة البحر الأحمر، أن البحارة الإنجليزي دانيال (DANIEL) الذي وصل إلى جدة عام ١٧٠٠م (لاحظ وجود عدة وكالات إنجليزية منتشرة في مينائي ينبع وجدة) [٦] .

واجه التغلغل الإنجليزي في الأراضي الحجازية، معارضة من قبل الدولة العثمانية . ففي عام ١٧٠٠م أوردت مصادر شركة الهند الشرقية الإنجليزية أن السلطات العثمانية في جدة أجبرت ربابنة إحدى سفنها المحملة بالبضائع، على نقل وتحميل قرابة (١٠٠) فرد من عناصر الانكشارية مع أمتعتهم على ظهر السفينة، أثناء رسوها مضطرة في ميناء جدة وهي في طريقها إلى ينبع بفعل عاصفة قوية[٧] .

من جانب آخر شهد عام ١٧٢٤م تدهور العلاقة بين ممثلي الشركة البريطانية وبين شريف مكة (عبد الله بن سعيد)، نتيجة لسوء تصرفات البريطانيين مع السكان المحليين . إلا أن ذلك لم يقف حائلاً دون مضي الحكومة البريطانية في تنفيذ مخططاتها الرامية لإدامة مصالحها الحيوية هناك[٨]، وبخاصة بعد نجاح منافستها التقليدية فرنسا في تجديد معاهدتها[٩] مع الدولة العثمانية عام ١٧٤١م، على نحو هدد البريطانيين الذين كانوا يخشون أن تستغل فرنسا الطريق الملاحي عبر البحر الأحمر، لتهديد مصالحهم المتنامية في الهند[١٠] .

ساءت معاملة البريطانيين في ميناء جدة بداية ستينات القرن الثامن عشر بسبب رفض السلطات البريطانية في الهند، الاستمرار بالتبرع السنوي[١١]، الذي اعتاد الحكام المغول[١٢] إرساله إلى الحرمين الشريفين وكان يشكل مورداً ماليا لكل من الدولة العثمانية وشريف مكة[١٣]، الأمر الذي اضطر معه الأخير إلى منع السفن البريطانية من مغادرة الميناء المذكور في محاولة لتحقيق مطلبه، فضلاً عن تقديمه شكوى إلى السلطان العثماني، تولى الأخير بدوره نقلها إلى السفير البريطاني باستنبول لكن دون جدوى[١٤] .

رغم ذلك تواصلت المساعي البريطانية باتجاه تعزيز وجودها في المنطقة، إذ أصبحت مدينة سورات الهندية مركزاً مهماً للتجارة البريطانية

إلى مكة، ومناطق أخرى على البحر الأحمر. وأشارت المصادر البريطانية إلى تصاعد وتأثر ذلك التعاون عام ١٧٥٩م[١٥].

وثقت شركة الهند الشرقية صلاتها بالحجاز، في حصول سفنها أثناء رسوها أو مرورها في ميناء جدة، على معاملة خاصة أكثر من رعايا السلطان العثماني. ففي الوقت الذي كانت فيه الرسوم المفروضة على السفن تقدر بـ ١٠٪، كان البريطانيون يدفعون ٨٪، ويتوجب عليهم تسديد ذلك بواسطة البضائع، في حين يجبر الآخرون على دفع الرسوم نقداً[١٦]. ولعل مثل هذه المعاملة الخاصة للبريطانيين، تعود إلى أن سفنهم كانت تعد من أكثر السفن القادمة من الهند إلى جدة[١٧].

أدت حرب السبع سنوات بين بريطانيا وفرنسا (١٧٥٦ - ١٧٦٣م)، وما نتج عنها من إطلاق يد بريطانيا في الهند، بموجب صلح باريس عام ١٧٦٣م، إلى زيادة التوجهات البريطانية نحو منطقة البحر الأحمر وموانئه المهمة[١٨]. وفي الوقت نفسه أدى فرض السلطات البريطانية رسوماً جمركية على السفن الحجازية العاملة هناك، إلى إثارة الشريف مساعد بن سعيد عام ١٧٦٦م، الذي ناشد تلك السلطات عدم إلحاق الأذى بالتجار الحجازيين، وكان جواب حكومة لندن على ذلك الالتماس إيجابياً، إذ وجهت شركة الهند الشرقية بأوامر محددة تضمنت (عدم اعتراض تلك السفن، مؤكدة بأنها تنظر بعين التقدير والرضا لالتماس الشريف مقدرين مبادرته هذه)[١٩].

شهد عام ١٧٦٩م، استقبال شريف مكة (مساعد بن سعيد) للرحالة البريطاني بروس (BRUCE)، الذي وصل الحجاز قادماً من مصر، مما يؤشر تنامي العلاقات البريطانية الحجازية. وأكد الرحالة ذاته مشاهدته لعدة سفن كبيرة، على متنها بحارة بريطانيون راسية في جدة[٢٠].

أقدم علي بك - حاكم مصر المملوكي - بعد احتلال قواته الحجاز عام ١٧٧٠م، على عقد اتفاقية مع الحكومة البريطانية، لضمان تسهيل وصول سفنها إلى ميناء جدة[٢١]. إلا أن الأخيرة ظلت متحفظة رغم ما تعرضت له حكومة البنغال من أزمة مالية عام ١٧٧٣م وحاجتها إلى تنشيط فروع تجارتها المختلفة[٢٢] - باتجاه تطوير

علاقاتها مع حاكم مصر . لأنها كانت تخشى استياء استنبول لمثل هذه الاتصالات، فتعرض المصالح البريطانية في المنطقة إلى الخطر[٢٣] .

وفي عهد خلفه محمد بك أبو الذهب، استطاع الرحالة البريطاني بروس (BRUCE) أن يستصدر من الأول أمراً عام ١٧٧٣م[٢٤]، تضمن السماح لسفن الشركة بالإبحار من جدة إلى السويس، نتيجة المجاملات التي مارسها شريف مكة وعماله في ميناء جدة، إلا أن الدولة العثمانية ظلت تعارض ذلك إلى أن نجحت بإلغاء الأمر المذكور[٢٥] .

شعر الشريف سرور بن مساعد بخطر تناقص موارده المالية، بسبب الإيعاز الذي أصدرته شركة الهند إلى سفنها المحملة ببضائع الشرق، بالتوجه إلى ميناء السويس مباشرة بدل رسوها في ميناء جدة[٢٦] . وعندئذ ناشد شريف مكة السلطان العثماني، أن يتدخل لمعالجة الموقف، فأصدر الأخير مرسوماً سلطانياً[٢٧]، تضمن منع التجارة من جدة إلى السويس، بغية استبعاد القوى الأوروبية من التقرب للأماكن المقدسة في الحجاز من جهة، ومنعها من استخدام طريق البحر الأحمر المؤدي إلى الشرق من جهة أخرى[٢٨] .

ومع ذلك قام البريطانيون بعدة فعاليات، هدفها الحيلولة دون نجاح القرار العثماني، وتمكنوا في أحايين كثيرة من الالتفاف عليه . وحسب ما ذكرته مصادر بريطانية عام ١٧٧٤ - ١٧٧٥م، فإن بعض السفن البريطانية كانت تتوجه مباشرة من الهند إلى ميناء السويس، فضلاً عن تمكن أخرى من كسر الطوق العثماني المتضمن احتكار سفن جدة ومخا، نقل البن بين الميناءين الأخيرين[٢٩] .

على أن العلاقات البريطانية الحجازية تعرضت لأزمة خلال تلك الفترة، اضطر معها شريف مكة إلى مصادرة العديد من السفن البريطانية المتواجدة في جدة، فأطلق ممثلو الشركة تهديدهم للشريف، بقصف جدة بالمدافع إن لم يطلق سفنهم وبضائعهم، فأجبر على التراجع وسلمها إليهم[٣٠] . كما مارسوا ضغوطاً عليه (إذ حذروه بأن لا ينتهج أي سياسة تلحق الأذى بالعلم البريطاني)[٣١] .

غير أن الأمور سرعان ما عادت إلى طبيعتها، إذ توثقت علاقة الشريف

سرور بن مساعد بالعاملين في شركة الهند الشرقية، وأوردت مصادر بريطانية، أن أمير مكة وأثناء رسو السفن البريطانية في ميناء جدة عام ١٧٧٧، صعد إلى سطح إحداها ووزع عطاياه على بحارتها، كما نجحت بعض السفن في العام ذاته من عبور جدة شمالاً باتجاه السويس، بعد حصولها على إذن من السلطات العثمانية[٣٢].

تجدد الصراع العثماني البريطاني أواخر سبعينات القرن الثامن عشر، في خضم تنافسها للهيمنة على سواحل البحر الأحمر ومدنه المؤدية إلى الهند. ففي عام ١٧٧٩ قُبض فجأة على تاجر بريطاني في القسطنطينية يدعى (وولي)،كان قد حضر بمهمة من الهند وعثر بين أوراقه على كتاب من الأميرال (هوكن) قائد القوات البريطانية هناك، موجه إلى كل من شريف مكة ووالي مصر، وفيه دعوة صريحة لإعطاء بريطانيا امتيازات خاصة في البحر الأحمر ومصر[٣٣]. وعندها أصدر السلطان عبد الحميد (١٧٧٤ - ١٧٨٩) فرماناً (يمنع أية سفينة من سفن الإفرنج من الاقتراب من ميناء السويس باعتباره الطريق المؤدي للحج المقدس إلى مكة، لذلك لم يؤذن إلا للسفن العثمانية بنقل البريد من جدة إلى السويس[٣٤]، كما تمت ملاحقة بعض الناشطين البريطانيين لخشية العثمانيين من تدخل الأولين في تجارة جدة[٣٥].

حصل تقارب أكبر في عهد الشريف غالب بن مساعد (١٧٨٧ - ١٨١٣م) مع شركة الهند الشرقية البريطانية، فقد عدته الأخيرة أفضل صديق لها[٣٦]، لأنه حرك نشاطاتها في الهند، إذ أخذ ممثلو الشركة على عاتقهم جلب المواد اللازمة من الهند، لإدامة حوض بناء السفن في جدة[٣٧].

في عام ١٧٩٨م تعرضت المصالح البريطانية بالبحر الأحمر والهند لمخاطر جدية، جراء الاحتلال الفرنسي لمصر، الأمر الذي دفع سعيد حامد - والي جدة - لمناشدة اللفتنانت كولونيل جون موري[٣٨] (MURREY) قائد البحرية البريطانية بالبحر الأحمر عام ١٧٩٩، إرسال قوة بحرية لمنع احتمال تقدم القوات الفرنسية نحو الجنوب من الحجاز واليمن. وفضلاً عن ذلك فإن شريف مكة كان قد عرض على السلطات البريطانية، استعداده للتعاون معها، مؤكداً للأخيرين بأن الفرنسيين

يتولون جمع القوارب والحيوانات في السويس للتهيؤ لعمل عسكري لاحقاً[٣٩]. وتضمنت رسالة يوسف باشا أمير المدينة وميناء جدة عام ١٨٠٠، الموجهة إلى المنصور بالله - إمام اليمن - ضرورة التعاون مع البريطانيين بقوله (فمن أتاكم من أصدقائنا الإنجليز أعطوهم ما يهوى من مطاعم الشهوات ومشارب الحلوى)[٤٠].

وهكذا أخذت علاقات شركة الهند الشرقية تميل نحو التعاون مع أشراف مكة بعد حالة التعثر وعدم الاستقرار التي شهدتها تلك العلاقات طوال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، ولا يخفى فإن وصول الفرنسيين إلى مصر ومنطقة البحر الأحمر، قد جعل حكام المنطقة مذهولين من هذا الخطر الجديد، فعملوا على التخلص منه.

٢ - أشراف الحجاز والفرنسيين في الشرق

أبدى الفرنسيون اهتماماً بمنطقة الحجاز والبحر الأحمر، لأهميتها بالوصول إلى الشرق منذ أواخر القرن السابع عشر[٤١]، وتطور ذلك الاهتمام في القرن الثامن عشر، إذ أستخدم رسلهم طريق البحر الأحمر لنقل المراسلات الفرنسية[٤٢]، كما عقدوا معاهدة مع الإمام المهدي - إمام اليمن - عام ١٧٠٦، وذلك تحقيقاً للمصالح الفرنسية في المنطقة[٤٣].

وخلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، اشتد التنافس الفرنسي البريطاني للسيطرة على البحر الأحمر وسواحله، بخاصة بعد أن حرمت الدولة العثمانية التجارة بين جدة والسويس عام ١٧٧٠، إلا أن البريطانيين حصلوا من العثمانيين على امتيازات مكنتهم من تجاوز ميناء جدة، وعندما شعر شريف مكة بأنه بحاجة إلى من يدعمه في موقفه هذا بوجه البريطانيين، عمل على كسب ود الفرنسيين[٤٤].

وفي الوقت نفسه واصل الفرنسيون جهودهم لمقاومة الامتيازات التي حصلت عليها بريطانيا[٤٥] في مصر بموجب معاهدة (وارن هاستنكس) عام ١٧٧٥[٤٦].

بعد وصول الحملة الفرنسية[٤٧] إلى مصر عام ١٧٩٨، أولى قائدها نابليون بونابرت الحجاز اهتمامه الخاص، لاعتبارات سياسية ودينية واقتصادية معروفة[٤٨]، فيما أعلنت الدولة العثمانية من جانبها الحرب على فرنسا، وأخذت تعد نفسها للدخول في تحالفات مع القوى الأوروبية المعادية للأخيرة[٤٩].

أجرى نابليون اتصالات مع الأمراء العرب في الجزيرة العربية والشام لتسهيل مهمته الرامية للوصول إلى الهند، وضرب الوجود البريطاني هناك[٥٠]. إذ بعد شهر من دخوله القاهرة، وجه نابليون رسالتين إلى الشريف غالب بن مساعد، مؤرخة في ربيع الأول ١٢١٣هـ/آب ١٧٩٨م، أعرب فيهما عن استعداده لتوفير الحماية اللازمة لقوافل الحج المتجهة إلى مكة، وبقاء الأوقاف المصرية المخصصة للحرمين الشريفين كما كانت في السابق. فيما أعرب شريف مكة برسالة جوابية عن ترحيبه بالمبادرة الفرنسية[٥١].

تواصلت الاتصالات بين قائد الحملة الفرنسية وشريف الحجاز. ففي ١٨ ذي القعدة ١٢١٣هـ/أيار ١٧٩٩م، بعث أمير مكة رسالة إلى نابليون، شكره فيها لرفع الأخير العشور على البن المرسل إلى مصر، ممهداً لذلك بإرساله طلباً وهدية قبل وصول المراكب إلى السويس بنحو عشرين يوماً[٥٢] مشيراً إلى أنه (أي الشريف)بعث إلى نابليون بسفن بقوله: (**وشهلنا الآن إلى طرفكم خمسة مراكب مشحونة من نفس بندرنا جدة المعمورة فالمطلوب حال وصول كتابنا إليكم إرسال عسكر من لديكم إلى بندر السويس لأجل حفظ أموال الناس**)[٥٣].

طلب نابليون في رسالته إلى الشريف غالب بن مساعد بتاريخ ٣٠ حزيران عام ١٧٩٩ إرسال المزيد من السفن المحملة ببضائع الشرق إلى مصر، في وقت أمر فيه الأول حاكم جزيرة موريشيوس الفرنسي، بتحويل (٩٤٠٠) فرنك إلى شريف مكة دلالة على قوة الصلات بينهما[٥٤]. وجاء في رسالته الثانية كما أوردتها المصادر الفرنسية قوله: (أنه قد اتخذ الإجراءات الضرورية لحماية السفن الحجازية بالموانئ المصرية) معرباً عن استعداده تطوير علاقات الصداقة مع أمير مكة[٥٥].

استهدف نابليون من خطاباته تلك، إقناع الشريف غالب بن مساعد إغلاق موانئ الحجاز في وجه الملاحة البريطانية، وواصل خلفاؤه انتهاج السياسة نفسها حيث نجح الجنرال مينو - الذي خلف كليبر في قيادة الحملة - بالحصول على إذن الشريف، بوصول البريد الفرنسي من الجزر الخاضعة لفرنسا في المحيط الهندي، على الرغم من أن الأخير ظل على حذر من الفرنسيين ومخططاتهم، وواصل تدعيم تحصينات ميناء جدة تحسباً لأي خطر[٥٦] .

ويظهر مما ذكرناه أن شريف مكة إدراكاً منه لضعف الدولة العثمانية، وعجزها عن حماية ولاياتها، راح يتودد إلى نابليون حتى قيل أنه:

(أهدى له سبع سواعي ونواخيذها "بحارتها" وشحنها من البن والملابس واستعطفه على بلاده واستأمنه على ماله ونفسه وأولاده) [٥٧] ، إضافة إلى قناعته بحقيقة ضعفه الاقتصادي، فموارده الضئيلة لا تتحمل توقف نشاط الحجاز التجاري، خلال فترة النزاع البريطاني الفرنسي في المنطقة[٥٨] .

أثار الاحتلال الفرنسي لمصر، ردود فعل عربية وإسلامية رسمية وشعبية، كان للعثمانيين فيها الدور الملحوظ في تحذيرهم مشايخ العرب وأمرائهم من مخاطر ذلك الاحتلال وآثاره على الأمة الإسلامية[٥٩]، الأمر الذي أدى إلى توقف إرسال المحمل الشريف والكسوة من مصر إلى الحجاز جراء ذلك[٦٠]، كما أعلن السلطان العثماني سليم الثالث (١٧٨٩ - ١٨٠٧م) الجهاد الديني ضد الفرنسيين، واستجاب لدعوته العرب في الحجاز واليمن وشمال أفريقيا[٦١]، كما كان مراد بيك - حاكم مصر المملوكي - قد استنجد بأشراف مكة وعرب ينبع وجدة لمقاومة الفرنسيين[٦٢] . فكان رد الفعل الشعبي لأهالي الحجاز عظيماً، مقارنة بالموقف الرسمي، الذي هادن الفرنسيين خشية من خطرهم[٦٣] .

لما وصلت إلى الحجاز أخبار دخول الفرنسيين مصر، قام أحد علماء المسلمين ممن يعدون من نزلاء مكة والمعروف بمحمد الجيلاني[٦٤]، يحث الناس على الجهاد، وأورد ذلك المؤرخ المصري الجبرتي، عند ذكره لحوادث شهر شعبان ١٢١٣هـ/٨ كانون الثاني - ٥ شباط ١٧٩٩، بالقول:

(ومنها تواتر الأخبار من ابتداء شهر رجب بأن رجلاً مغربياً يقال له الشيخ الجيلاني كان مجاوراً لمكة والمدينة والطائف فلما وردت أخبار الفرنسيين إلى الحجاز وأنهم ملكوا الديار المصرية انزعج أهل الحجاز لذلك وأن هذا الشيخ صار يعظ الناس ويدعوهم إلى الجهاد وقرأ بالحرم كتاباً مؤلفاً في معنى ذلك واتعظ جملة من الناس وبذلوا أموالهم وأنفسهم واجتمع نحو الستمائة[٦٥] من المجاهدين وركبوا البحر إلى القصير مع ما انضم إليهم من أهل ينبع وخلافه فورد الخبر في أواخره أن انضم إليهم جملة من أهل الصعيد وبعض أتراك ومغاربة وثبت الحجازيون ثم انكفؤا لقلتهم وذلك بناحية جرجا. حتى قتل أكثرهم ورجع القليل منهم[٦٦].

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تصاعدت المشاركة الحجازية بالقتال داخل الأراضي المصرية، وأثار ذلك المخاوف لدى السلطات الفرنسية، وأجبرتها على أن تعلن متعمدة (أن هؤلاء الأشراف المذكورين الذين صحبة الكيلاني "الجيلاني"، تمزقوا كل ممزق وانهزموا وتفرقوا)، في محاولة لإضعاف المقاومة المصرية[٦٧].

مهما يكن من أمر فإن مساهمة أهالي الحجاز في مقاومة الحملة الفرنسية على مصر، قد اتسمت بالروح الدينية الصادقة مقترنة بمشاعر الدفاع عن الأمة العربية والإسلامية[٦٨]، وبرز تأثيرها واضحاً في إدامة زخم المقاومة المصرية وإلحاق الخسائر بالفرنسيين، وعُدَّ ذلك أحد الأسباب التي برر بها نابليون انسحابه من أمام أسوار عكا المحاصرة، كما جاء في خطابه المرسل إلى مركز القيادة بالقاهرة، والذي ذكر فيه خمسة عشر سبباً لانسحابه، وأشار إلى قسم منها (السادس)، حيث جاء ما يخص الحجاز (بلغنا توجه أهل الحجاز صحبة الكيلاني إلى ناحية الصعيد)[٦٩].

قائمة المصادر والمراجع

١ - الوثائق

* الوثائق الأرشيفية المعربة عن العهد العثماني بتركيا، الموجودة في مركز التوثيق الإعلامي لدول الخليج العربي، بغداد، وزارة الثقافة والإعلام .

٢ - الكتب العربية والمعربة

* أباظة، د. فاروق عثمان، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩ - ١٩١٨) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٦ .
* أنيس، محمد، البيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، بيروت، ١٩٦٧ .
* بولارد، ريد، بريطانيا والشرق الأوسط منذ أقدم العصور حتى عام ١٩٥٢، نقله إلى العربية حسن أحمد سلمان، بغداد، ١٩٥٦ .
* بيرين، جاكلين، اكتشاف جزيرة العرب، نقله إلى العربية، قدري قلعجي، بيروت، ١٩٦٣ .
* البيطار، الشيخ عبد الرازق، حلبة البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، جـ ١، حققه ونسقه وعلق عليه محمد بهجت البيطار، دمشق ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .
* جب، هاملتون، هارولد برون، المجتمع الإعلامي والغرب، جـ ٢، ترجمة د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف بمصر، ١٩٧١ .
* الجبرتي، عبد الرحمن، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق وشرح حسين محمد جوهر، عمر الدسوقي، مطبعة الرسالة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م .

* **جحاف، لطف الله بن أحمد**، نصوص يمنية عن الحملة الفرنسية على مصر، نشر وتحقيق سيد مصطفى سالم، صنعاء، ١٩٨٩ .

* **جرادات، وليد محمد**، الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، الدوحة، ١٩٨٦ .

* **حقي، إحسان**، باكستان، ماضيها وحاضرها، دار النفائس، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م .

* **الخليلي، جعفر**، موسوعة العتبات المقدسة، الجزء الأول من مكة المكرمة، بغداد، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م .

* **خوري، إميل، عادل إسماعيل**، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٩٥٨، جـ ١، بيروت، ١٩٥٩ .

* **دحلان، أحمد زيني**، الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، جـ ٢، القاهرة، ١٣٨٧هـ/١٩٦٨م .

* **الرافعي، عبد الرحمن**، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ ١، القاهرة ١٣٧٤هـ/١٩٥٠م .

* **شريف، محمد بديع وآخرون**، دراسات تاريخية في النهضة العربية الحديثة، القاهرة (د . ت) .

* **شكري، محمد فؤاد**، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة (د . ت) .

* **الشناوي، د. عبد العزيز محمد**، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ٢، القاهرة، ١٩٨٠ .

* **الشناوي، د. عبد العزيز محمد**، قناة السويس والتيارات السياسية التي أحاطت بإنشائها، جـ١، القاهرة، ١٩٧١ .

* **شهاب، حسن صالح**، أضواء على تاريخ اليمن البحري، بيروت، ١٩٨١ .

* الشوكاني، محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ٢، بيروت (د. ت).

* العمرو، صالح، القناصل البريطانيون في جدة كمصدر لتاريخ غرب الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، في كتاب مصادر تاريخ الجزيرة العربية، الكتاب الأول، جـ٢، الرياض، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

* العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٥، ١٣٧٢هـ/١٩٥٢م.

* غالب، محمد أديب، من أخبار الحجاز ونجد في تأريخ الجبرتي، دار اليمامة، ١٩٧٥.

* المسعودي، د. عبد العزيز بن قائد، العروبة والإسلام في فكر شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني (ندوة شيخ الإسلام المجتهد محمد بن علي الشوكاني) صنعاء (١٧ - ٢٠ فبراير/شباط) ١٩٩٠.

* نوفل، د. أحمد سعيد، العلاقات الفرنسية العربية من خلال موقف فرنسا من العناصر الأساسية للقضية الفلسطينية، الكويت، ١٩٨٤.

٣ - المصادر الأجنبية

* BRUCE, JAMES; TRAVELS TO DISCOVER THE SOURCE OF THE NILE, THE 2nd EDITION, EDINBURGH, AT THE UNIVERSITY PRESS.

* CAPPER, JAMES, OBSERVATION ON THE PASSAGE TO INDIA THROUGH EGYPT AND ACROSS THE GREAT DESERT, IN (1778-1779) LONDON.

* DANIEL, WILLIAM, A JOURNAL OR ACCOUNT OF HIS LATE EXPEDITION OR UNDERTAKING TO GO FROM LONDON TO SURAT, IN "THE RED SEA AND ADJACENT COUNTRIES AT THE CLOSE OF THE SEVENTEENTH CENTURY AS DISCRIBED; .. EDITED BY SIR WILLIAM FOSTER C.I.E, LONDON, 1949.

* GAURY, GERALD DE; RULERS OF MECCA, LONDON, 1951.

* GROSE, C; A VOYAGE TO THE EAST INDIES, VOL. 11, LONDON. 1772.

* IRWIN, EYLES; SERIES OF ADVENTURES IN THE COURSE OF A VOYAGE UP THE RED SEA IN THE YEAR 1777, VOL. 1, LONDON.

* LACROIX, DESIRE; BONAPARTE IN EGYPT (1798-1799) PARIS, 1899.

* MARSTON, THOMAS E; BRITAIN'S IMPERIAL ROLE IN THE RED SEA AREA 1800-1879, U.S.A, 1961.

* NIEBUHR, M.C; TRAVELS THROUGH ARABIA AND OTHER COUNTRIES IN THE EAST, VOL. 1, EDINBURGH, 1792.

* PARSONS, ABRAHAM; TRAVELS IN ASIA AND AFRICA, LONDON, 1808.

* WITTAMAN, WILLIAM; TRAVELS IN TURKEY, ASIA MINOR, SYRIA AND ACROSS THE DESERT INTO EGYPT DURING THE YEAR 1700, 1800 AND 1801, LONDON, 1803.

٤ – البحوث المنشورة في الدوريات

ا – العربية

* أبو داهش، د. عبد الله، موقف أدباء الجزيرة من الحملة الفرنسية على مصر ١٢١٣-١٢١٦هـ/ ١٧٩٨-١٨٠١م، مجلة العرب، جـ١١ و١٢، س ٢٠، الجماديان سنة ١٤٠٦هـ/ كانون الثاني – شباط ١٩٨٦م .

* أنيس، محمد، النشاط الأوروبي بمصر وجيرانها أواخر القرن الثامن عشر الميلادي . مصادره ووثائقه، المجلة التاريخية المصرية، جـ٢، عـ٢، تشرين الأول، ١٩٤٩ .

* برج، د. محمد عبد الرحمن، الحجاز في العصر العثماني – دراسة لبعض مصادر وضعه الاقتصادي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، المجلة التأريخية المغربية، ع ٣٩-٤٠، س ٢٠، ديسمبر (كانون الأول) ١٩٥٨ .

* حسونة، محمد أمين، الطريق البري إلى الهند، مجلة الحديث، ع ٩، س ١١، حلب، أيلول، ١٩٣٧ .

* العمروسي، شفيق شوكت، المكيون في مصر دور عرب الجزيرة في مقاومة الحملة الفرنسية، مجلة الدارة، ع ١، س ١٠، شوال ١٤٠٤هـ/ حزيران ١٩٨٤م .

* عناني، د. محمد زكريا، مراسلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون ورجال حملته على الشرق، مجلة الدارة، ع ٣، س ٦، جماد ثاني ١٤٠١هـ/ نيسان ١٩٨١م .

* نبيل، مصطفى، باب المندب المضايق العربية التي تحكم العالم (استطلاع)، مجلة العربي، ع ٢٦١، الكويت، آب، ١٩٨٠ .

ب - الأجنبية

* ABIR, M., THE ARAB REBELLION OF AMIR CHLIB OF MECCA (1788-1813) MIDDLE EASTERN STUDIES, VOL. 2, MAY 1916.

د. صبري فالح الحمدي
كلية التربية/الجامعة المستنصرية/بغداد

الهوامش

==========

١ – صالح العمرو، القناصل البريطانيون في جدة كمصدر لتاريخ غرب الجزيرة العربيـة في النصف الثاني من القرن التاسع عشـر وأوائـل القرن العشرين، في كتـاب "مصادر تـاريخ الجزيـرة العربية، الكتاب الأول، جـ٢، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٢١ .

٢ – د. عبد العزيز محمد الشناوي، قناة السويس والتيـارات السياسية التي أحـاطت بإنشائها، القاهرة، ١٩٧١، ص٢ .

٣ – تأسست هذه الشركة عام ١٦٠٠ .

٤ – M. ABIR; THE ARAB REBELLION OF AMIR CHLIB OF MECCA (1788 1813) MIDDLE EASTERN STUDIES. VOL. 2, MAY 1916. P. 189.

٥ – لمزيـد مـن التفاصيل أنظـر : محمـد أنيـس، السـيـد رجب حـراز، الشـرق العربـي في التاريخ الحديث والمعاصر، بيروت، ١٩٦٧، ص ص ٩٥–٩٦ .

٦ – WILLIAM DANIEL; A JOURNAL OR ACCOUNT OF HIS LATE EXPEDITION OR UNDERTAKING TO GO FROM LONDON TO SURAT, IN "THE RED SEA AND ADJACENT COUNTRIES AT THE CLOSE OF THE SEVENTEENTH CENTURY AS DESCRIBED, ... EDITED BY SIR WILLIAM FOSTER CI, E, LONDON, 1949, P. 76.

٧ – - DANIEL, OP.CIT, P. 189.

٨ – - ABIR; OP. CIT, P. 189.

٩ – وهـي المعـاهدة التـي وقعـت بـين فرانسـوا الأول ملـك فرنسـا، والسلطان العثمـاني سـليمان القانوني عام ١٥٣٦ .

١٠ – د. فـاروق عثمـان أباظـة، عـدن والسياسـة البريطانيـة في البحـر الأحمـر (١٨٣٩–١٩١٨) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٧٩، ص ص ٧٣–٧٤ .

١١ – قدر الرحالة الدنماركي نيبور (NIEBUHR) ما يمنحه سلطان المغول سنويا إلى شريف مكة بما يقارب الـ (٦٠) ألف روبية . أنظر :

- M. C, NIEBUHR; TRAVELS THROUGH ARABIA AND OTHER COUNTRIES IN THE EAST. VOL.I. EDINBURGH, 1792, P. 31.

١٢ - تأسست امبراطورية المغول عام ١٥٢٦م . وذلك على يد (بابر شاه)، ثم أصابها الضعف بعد وفاة (أورنك زيب) أبرز حكامها عام ١٧٠٧م. حتى استطاعت شركة الهند الشرقية في عام ١٧٦٥، أن تحصل من السلطان (شاه عالم الثاني) على امتياز خاص، وهو إدارتها البلاد مقابل مبلغ خاص تقدمه الأخيرة له، وقد انقرضت هذه الدولة عام ١٨٥٧م . أنظر إحسان حقي، باكستان ماضيها وحاضرها، دار النفائس بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص٩٧ . أنظر أيضا العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالين، جـ٥، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م . ص ص٦١-٦٢ .

١٣ - لمزيد من التفاصيل أنظر: - ABIR; OP. CIT, P. 189.

١٤ - - NIEBUHR; OP. CIT, VOL. 1, P. 31.

١٥ - لمزيد من التفاصيل أنظر: - GROSE. C; A VOYAGE TO THE EAST INDIES, VOL. 11, LONDON, 1772, P. 321.

١٦ - - NIEBUHR; OP. CIT, VOL. 1, P. 235.

١٧ - د. محمد عبد الرحمن برج، الحجاز في العصر العثماني دراسة لبعض مصادر وضعه الاقتصادي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، المجلة التاريخية المغربية، ع ٣٩-٤٠، س١٢، ديسمبر (كانون الأول)، ١٩٨٥، ص٤٧٥ .

١٨ - المصدر نفسه، ص ص٤٧٩-٤٨٠ .

١٩ - - GERALD DE GAURY; RULERS OF MECCA, LONDON, 1951, P. 171

٢٠ - - JAMES BRUCE; TRAVELS TO DISCOVER THE SOURCE OF THE NILE, THE 2ND EDITION, EDINBURGH, AT THE UNIVERSITY PRESS, PP. 219, 229.

٢١ - الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، جـ٢، القاهرة، ١٩٨٠، ص ص٧٣١-٧٣٢ .

٢٢ - محمد أنيس، النشاط الأوروبي بمصر وجيرانها أواخر القرن الثامن عشر الميلادي، مصادره ووثائقه، المجلة التاريخية المصرية، جـ٢، ع ٢، تشرين الأول، ١٩٤٩، ص١١٤ .

٢٣ - ريد بولارد، بريطانيا والشرق الأوسط منذ أقدم العصور حتى عام ١٩٥٢، نقله إلى العربية حسن أحمد سلمان، بغداد، ١٩٥٦، ص٢٧ .

٢٤ – في عام ١٧٧٣ تم انسحاب بريطانيا من أمريكا إثر انتهاء حروب التحرير الأمريكية بموجب معاهدة فرساي، الأمر الذي دفع الأولى إلى البحث عن طريق سهل وقريب للمواصلات بينها وبين الهند في خضم تنافسها مع فرنسا للاستحواذ على القارة الهندية . أنظر: د. فاروق عثمان أباظة، عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩–١٩١٨) معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٦، ص٧٤ .

٢٥ – محمد أمين حسونة، الطريق البري إلى الهند، مجلة الحديث، ع٩، س١١، حلب، أيلول، ١٩٣٧، ص٦٣١ .

٢٦ – JAMES CAPPER, OBSERVATION ON THE PASSAGE TO INDIA THROUGH EGYPT AND ACROSS THE GREAT DESERT. IN (1778-1779) LONDON, P. VII.

٢٧ – عن دوافع الإجراء العثماني يمكن الرجوع إلى بولارد، المصدر السابق، ص ص٢٦–٢٧ .

٢٨ – لمزيد من التفاصيل أنظر: THOMAS, MARSTON; BRITAIN'S IMPERIAL ROLE IN THE RED SEA AREA 1800-1879, U.S.A, 1961, P. 29.

٢٩ – ABRAHAM PARSONS; TRAVELS IN ASIA AND AFRICA, LONDON, 1808, P. 285.

٣٠ – ABIR, OP. CIT, P. 189.

٣١ – EYLES IRWIN; SERIES OF ADVENTURES IN THE COURSE OF A VOYAGE UP THE RED SEA IN THE YEAR 1777, VOL. 1, THIRD EDITION, PRINTED FOR J. DODSLEY, PALL-MALL, LONDON, P. 24, 34.

٣٢ – IRWIN; OP. CIT, P. 69, 78.

٣٣ – إميل خوري، عادل اسماعيل، السياسة الدولية في الشرق العربي من سنة ١٧٨٩ إلى سنة ١٩٥٨، جـ١، بيروت، ١٩٥٩، ص٣٩ .

٣٤ – الشناوي، الدولة، ص ص٧٣٣–٧٣٤ .

٣٥ – لمزيد من التفاصيل أنظر: جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، نقله إلى العربية قدري قلعجي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٦٣، ص٧٧ .

٣٦ – جعفر الخليلي، موسوعة العتبات المقدسة، الجزء الأول من مكة المكرمة، دار التعارف، بغداد، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م، ص٢٦٠ .

٣٧ – لمزيد من التفاصيل أنظر: هاملتون جب، هارولد برون، المجتمع الإسلامي والغرب، جـ٢، ترجمة د. أحمد عاد الرحيم مصطفى، مراجعة د. أحمد عزت عبد الكريم، دار المعارف بمصر، ١٩٧١، ص١٥٦ .

٣٨ – يعد جون موري أول من احتل جزيرة ميسون اليمنية، وجاء في مراسلاته التي بعث بها إلى قيادته في الهند، ضرورة التأثير على موقف شريف مكة بالأموال عن طريق تمبو سلطان

(حاكم ميسور بالهند) . أنظر: مصطفى نبيل، باب المندب المضايق العربية التي تحكم العالم (استطلاع)، مجلة العربي، ع ٢٦١، الكويت، آب ١٩٨٠، ص٧٠ .

٣٩ - GAURY; OP. CIT, PP. 182-183.

٤٠ – محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، جـ٢، بيروت، (د. ت)، ص ص٣٥٨-٣٥٩ .

٤١ – وليد محمد جرادات، الأهمية الاستراتيجية للبحر الأحمر بين الماضي والحاضر، نشر وتوزيع دار الثقافة، ط ١، الدوحة ١٩٨٦، ص١١٢ .

٤٢ - ABIR; OP. CIT, P. 190.

٤٣ – لمزيد من التفاصيل أنظر: حسن صالح شهاب، أضواء على تاريخ اليمن البحري، دار العودة، ط ٢، بيروت، ١٩٨١، ص٢٦٦ .

٤٤ - CAPPER, OP. CIT, P. X111.

٤٥ – استمر الصراع البريطاني الفرنسي حول مصر والبحر الأحمر حتى دخول القوات الفرنسية مصر عام ١٧٩٨ . أنظر: محمد بديع شريف وآخرون، دراسات تأريخية في النهضة العربية الحديثة، معهد الدراسات العربية العالية (د. ت)، ص٢٢٣ .

٤٦ – لمزيد من التفاصيل عن المعاهدة أنظر: خوري وآخرون، المصدر السابق، ص٣٨ .

٤٧ – يرجع المشروع الفرنسي الهادف إلى إنشاء إمبراطورية واسعة في الشرق، إلى ما بعد حرب السبع سنوات (١٧٥٦-١٧٦٣) بين فرنسا وبريطانيا، ثم تعاظم بعد اندلاع الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، أنظر: د. عبد العزيز بن قائد السعودي، العربية والإسلام في فكر شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني (ندوة شيخ الإسلام المجتهد محمد بن علي الشوكاني) صنعاء (١٧-٢٠ فبراير/شباط) ١٩٩٠، ص٨ .

٤٨ – د. محمد زكريا عناني، مواصلات متبادلة بين الشريف غالب بن مساعد وبين نابليون ورجال حملته على الشرق، مجلة الدارة، ع ٣، س ٦، جمادى الثانية ١٤٠١هـ/ نيسان ١٩٨١م، ص٧٤ .

٤٩ – لمزيد من التفاصيل أنظر: لطف الله بن أحمد جحاف، نصوص يمنية من الحملة الفرنسية على مصر، نشر وتحقيق د. سيد مصطفى سالم، صنعاء، ١٩٨٩، ص ص٥٨-٥٩ .

٥٠ – جرادات، المصدر السابق، ص ١٢٥ .

٥١ – لمزيد من التفاصيل، أنظر: عناني، المصدر السابق، ص ص ٧٧-٨٠ .

٥٢ – محمد أديب غالب، من أخبار الحجاز ونجد في تاريخ الجبرتي، دار اليمامة، ١٩٧٥، ص٨١ .

٥٣ – أنظر: دحلان، الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية، جـ٢، القاهرة، ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٨م، ص٢٥٦، غالب، المصدر السابق، ص ص٨١-٨٢ .

٥٤ – غالب، المصدر السابق، ص ص٨٧-٨٨ .

٥٥ - DESIRE LACROIX; BONAPARTE IN EGYPTE (1798-1799) PARIS, 1899, PP. 250-251.

٥٦ - محمد فؤاد شكري، الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربي، القاهرة (د. ت)، ص٢٥٦ .

٥٧ - لمزيد من التفاصيل، أنظر: السعودي، المصدر السابق، ص٧ .

٥٨ - جحاف، نصوص، ص٦٩ .

٥٩ - و.ع (و. أ. م. ت. أ)، جـ١ ، ع١، رقم البحث ٥١٧، دفتر ٢٠٧، الصفحة ٩٧، ١١ جمادى الآخرة ١٢١٣هـ .

٦٠ - WILLIAM WITTMAN; TRAVELS IN TURKEY, ASIA MINOR, SYRIA AND ACROSS THE DESERT INTO EGYPT DURING THE YEAR 1700, 1880 AND 1801, PRINTED FOR RICHARD PHILLIPS, NO. 71, ST. PAUL'S CHURCH YARD, BY T. GILLET, SALISBURY SQUARE, LONDON, 1803, PP. 382-383.

٦١ - د. أحمد سعيد نوفل، العلاقات الفرنسية العربية من خلال موقف فرنسا من العناصر الأساسية للقضية الفلسطينية، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، ط١، الكويت ١٩٨٤، ص٢٨ .

٦٢ - عبد الرحمن الرافعي، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، جـ١، مكتبة النهضة المصرية، ط٤، القاهرة، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، ص٣٧٦ .

٦٣ - أنظر: شفيق شوكت العمروسي، المكيون في مصر - دور عرب الجزيرة في مقاومة الحملة الفرنسية ، مجلة الدارة، ع١، س١٠، شوال ١٤٠٤هـ/ حزيران ١٩٨٤م، ص٥٧ .

٦٤ - اسمه محمد المغربي الجيلاني الهاشمي .

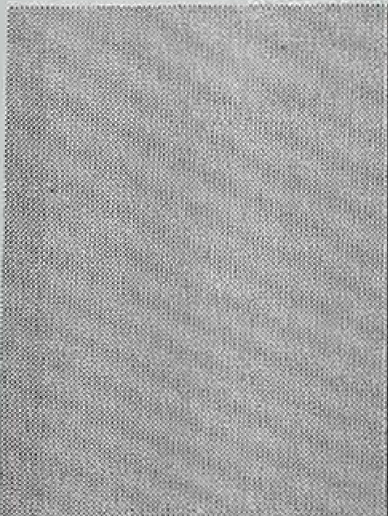
٦٥ - تزايد عددهم حتى وصل إلى أربعة آلاف محارب بعد خروجهم من جدة، أنظر: العمروسي، المصدر السابق، ص١٠ .

٦٦ - أنظر الشيخ عبد الرازق البيطار، حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، جـ١، حققه ونسقه وعلق عليه محمد بهجت البيطار، دمشق، ١٣٨٠هـ/١٩٦١م، ص ١١٨ .

٦٧ - عبد الرحمن الجبرتي، مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيس، تحقيق وشرح حسين محمد جوهر، عمر الدسوقي، مطبعة الرسالة ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ص ١٣٧ - ١٣٨٧ .

٦٨ - لمزيد من التفاصيل، أنظر : د. عبد الله أبو داهش، موقف أدباء الجزيرة من الحملة الفرنسية على مصر ١٢١٣ - ١٢١٦هـ/١٧٩٨ - ١٨٠١م، مجلة العرب، جـ ١١ و ١٢ س٢٠، الجماديات سنة ١٤٠٦هـ/كانون الثاني شباط ١٩٨٦م، ص ٧٦٢ .

٦٩ - لمزيد من التفاصيل، أنظر : السعودي، المصدر السابق، ص ٤ .



انطباعات لوكر عن مناطق بالخليج العربي

بقلم:

الدكتور سامي سعيد الأحمد

يعتبر وصف ا. لوكر (A. Locher) للمناطق التي مر بها من أقطار الخليج العربي مهمة رغم قصرها حيث جاءت في وقت قلت فيه الكتابات عن المنطقة وبزمن له أهميته (النصف الثاني من القرن التاسع عشر) وترك انطباعات قيمة للمهتمين بأحوال الخليج العربي . وتوضح الكتابات دقة لوكر واهتمامه بالتفاصيل وحب الاستطلاع لديه وسيتركز المقال على ما دوّنه من انطباعات عن لبلدان التي مر بها من الخليج والتي ضمنها كتابه الموسوم (مع



الخيمة والهلال) المطبوع باللغة الإنجليزية سنة ١٨٩٠[١] .

ولم يذكر لوكر سنة رحلته وأعتقد أنها سبقت سنة ١٨٧٠ بدليل أن أحد رفاقه وكان إيطالي الجنسية قد أرسل لشراء خيول أصيلة من العراق والجزيرة الفراتية (الواقعة بين ذراعي دجلة والفرات ومنابع دجلة والفرات وجبال طوروس في شرق تركيا) للإمبراطور نابوليون الثالث (١٨٤٨ - ١٨٧٠) والذي أطاحت بعرشه الحرب السبعينية سنة ١٨٧٠ بين فرنسا وألمانيا . وقد زوّد رفيق

سفر لوكر هذا برسائل توصية وتعريف لأشخاص مهمين لمساعدته في مهمته دون أن يذكر هوية هؤلاء الذين زودوه بالرسائل ولا الرجال الذين بعثوه إليهم .

لم يذكر لوكر وهو أمريكي الجنسية في كتابه أي شيء عن خلفيته وعمله بل بدأ القول بركوبه الباخرة من بومباي، الميناء الهندي الشهير على الساحل الشرقي بعد أن كان في رحلة صيد بغابات خانديش وناجبور بالهند بصحبة ضابطين بريطانيين من الفرقة الهندية . والباخرة التي استقلها لوكر مخصصة لنقل البريد وأقلعت من بومباي في الثالث من مارس (دون أن يذكر السنة) وهو اليوم الذي كان فيه أصدقاؤه يعدون العدة لزيارة كهوف جزيرة إليفانت القريبة من بومباي والشهيرة باحتوائها على منحوتات رائعة وضخمة للآلهة البرهمية .

لم تكن الباخرة بالكبيرة بل متوسطة الحمولة (٨٠٠ طن) . وكانت عندما استقلها لوكر وزملاؤه مزدحمة بركاب من شتى الجنسيات، إيران وأفغان والأغلبية العظمى منهم كانوا عرباً من أقطار الخليج العربي لهم علاقات تجارية مع الهند الأمر الذي يدل على متانة عمليات الاستيراد والتصدير بين أقطار الخليج العربي والهند آنذاك . والباخرة غاصة بالحمولات من شتى أنواع البضائع . وذكر لوكر أنه خلال سفرته هذه رأى أعداداً كبيرة من البواخر والسفن تمخر عباب بحر العرب (القسم الشمالي من المحيط الهندي) غادية وآيبة من وإلى أقطار الخليج العربي من الهند محملة بأصناف البضائع، الأمر الذي يؤكد على قوة العلاقات التجارية وأهمية منطقة الخليج العربي في التجارة الدولية . والسفن العربية العاملة في هذه التجارة، برأي لوكر، ثقيلة مصنوعة من الخشب تتراوح حمولاتها من ٥٠ - ٢٠٠ طن تنقل عادة التمور، القهوة، الحنطة والصوف وما إلى ذلك . وغالبية ملاحيها من الصومال وزنجبار يعملون وهم نصف عراة (يقصد يلبسون الازار الذي يشد من وسط الجسم ويصل إلى القدمين) .

وعندما صارت الباخرة على بعد مائة ميل من ساحل الخليج العربي (بتقدير لوكر) امتلأ ماء الخليج بالسمك

وكأننا (حسب وصفه) (نسير وسط سمك) وقال بأنه لم ير في حياته منطقة بها مثل هذا العدد الوفير والهائل من السمك

ومعنى هذا أنه يعتبرها أغزر سمكاً حتى من مصائد شمال الأطلسي في لبرادور ونيوفاوندلاند الشهيرة على ساحل المحيط الأطلسي لكندا والولايات المتحدة والتي تعتبر أكثر مناطق العالم ثراءً بالسمك والتي لابد أن لوكر كان يعرف عنها جيداً[٢] .

صارت الباخرة عند شروق شمس الثاني من مارس على بعد قليل من ألحد (ألحاد) ويسميه لوكر رأس الصخور، أي أن سير الباخرة بين رأس الحد وبومباي قد استغرق خمسة أيام وهي مدة طويلة مقارنة بما تقطعه البواخر لنفس المسافة الآن، ويصف لوكر الأراضي التي مرُ بها على طول ساحل الخليج بهذه المنطقة بأنها ليست بالجميلة ولا المغرية بل عقيمة ومجدبة وخلفها سلسلة من التلال الوعرة الجرداء الصفراء المائلة للحمرة . وليس هناك أثر لحياة أو خضرة ويستنتج بأنها لابد أن تكون غير مأهولة . ولم يحدد لوكر المنطقة أو يسميها حتى يمكن الحكم على وضعها الآن . وبعد ساعتين أو ثلاث ساعات وصلت الباخرة إلى رأس حيرات الذي يصفه لوكر بالمرتفع الهائل من الصخر واقفاً بكل شموخ في البحر مشكلاً ما يشبه حافة الطريق الجنوبي للداخل إلى ميناء مسقط في عمان . وبعد المرور بالرأس وصلت الباخرة إلى ميناء مسقط الواقع بكل كبرياء بين صخور ضخمة جداً تغطي جانبي الميناء العميق والضيق مع سور طبيعي هائل ارتفاعه ٢٥٠ قدماً . والمنظر جميل ويظهر في البداية صف من البيوت المشيدة بالحجر الضخم على طول الساحل عند نهاية الميناء الصخري الجنوبية . وأكثر هذه عظمة وبهاءً كان قصر السلطان الذي يتألف من ثلاث إلى أربع طوابق وهو مخصص لأسرته . وعلى يمين قصر السلطان بناية واسعة ذات طابقين وحديقة غناء هي دار المقيم السياسي البريطاني، وهو الأوروبي الوحيد، برأي لوكر، الذي يعيش في مسقط .

كما لاحظ وجود قلعة صغيرة جداً مشيدة على كل صخرة أو مرتفع يطل على ميناء مسقط الغاية منها الدفاع عن المدينة . ويعلق لوكر أن المواطنين العمانيين لم يتوانوا في بذل كل جهد في التعاون مع الطبيعة التي حبت مسقط

بالحماية من أجل خلق منعة وحماية أكثر للحصون والقلاع التي تحمي ليس فقط الميناء بل المدينة أيضاً . ويعتقد لوكر أن هذه التحصينات ليست بالمكينة، وعلى حد قوله (أن إطلاقة مدفع واحدة تكفي لهدم البناية بأكملها) . لذا اقتنع لوكر بأنها بنيت لزرع الخوف في قلوب من تراودهم أنفسهم الهجوم فيترددون عن مهاجمة أي مكان مهم .

أطلقت مدافع ميناء مسقط ست قذائف تحية لباخرة البريد هذه كان صوتها مدوياً (كالرعد في المرتفعات الوعرة) . وتوقفت الباخرة في مياه البحر العميقة وأحيطت بالكثير من القوارب الصغيرة والتي يبلغ طول الواحد منها حوالي ٢٠ قدماً وبعرض قدمين بنهاية مدببة وقد حفرت القوارب من سيقان الأشجار . وبكل قارب ملاحان اثنان إما عرب أو (عادة من زنجبار أو الصومال) جاءوا لبيع بضائعهم لركاب الباخرة والتي تتألف غالباً من الفواكه أو السمك أو أنهم قدموا من أجل حمل ركاب الباخرة بقواربهم إلى الساحل .

ويظهر قارب كبير قد أتى يحمل بريد البلد (عمان) لتسليمه لباخرة البريد القادمة . وساور لوكر وزملاءه الخوف من ركوب القوارب الصغيرة لاعتقادهم بأنها غير آمنة ولكنهم ركبوها وكانوا خلال فترة ركوبهم فيها حذرين جداً في الجلوس بصورة ثابتة خوفاً من السقوط بمياه البحر المليئة بالأنواع المفترسة الخطرة . وقد أدهشت لوكر وجماعته لدى وصولهم الساحل رائحة رؤوس السمك المختلفة الأحجام المتناثرة على طول الشاطئ وتفسخ الكثير منها . كما لاحظوا أن سكان مسقط يتعجبون من سير لوكر وجماعته دون سلاح حيث أن كل مواطن يحمل نوعاً من السلاح .

ويبدو تعجب السكان، باستنتاج لوكر، أن الأوروبيين الذين يفدون إلى مسقط كانوا لا يختلطون مع أهالي البلد . وأن نصف البيوت المشيدة تشكل القسم الرئيسي من مدينة مسقط . والبيوت عادة واسعة عالية مشيدة من الصخر على الطراز العربي الذي يمتاز، بتحديد لوكر، بالسقوف المستوية وقلة النوافذ . وأكبر بيت كان دار السلطان الذي لم يكن وقت وصول لوكر موجوداً في المدينة بل كان في مهمة رسمية عند الحدود الشمالية الغربية من دولته . ويظهر أن لوكر كان حريصاً على مشاهدة

وتفحص كل شيء ، فقد ذكر أن مدافع جيش السلطان قديمة . وعندما سأل عن سبب ذلك أجابوه بأن السلطان يحرص على تجهيز جيشه بأحدث المعدات والأسلحة وهي الآن في الاستعمال .

زار لوكر وزملاؤه سوق مسقط الذي يقول عنه أنه أكثر أماكن المدينة إثارة بالنسبة للزائر الأجنبي . كما يذكر، مثلها مثل أية مدينة آسيوية يعتبر السوق فيها الأكثر ازدحاماً وعملاً حيث يجد الداخل إليه أنواع البضائع المعروضة كالقلائد والأساور والخلاخل والأقراط (للأنف والأذن) والخواتم وأنواع الأحجار الكريمة . كما يتردد على السوق البدو الذين وفدوا إلى المدينة للتسوق وشراء ما يحتاجون إليه .

وقد أعجب لوكر في بطريقة عرض الباعة لبضائعهم بحيث يصعب سرقة أي شيء منها . خصص لوكر صفحات عدة عن نساء مسقط، حيث يقول أنهن محجبات بقطعة قماش من الحرير الأسود أو الأحمر ويرتدين الإزار أو العباءة التي تغطيها من الرأس حتى القدمين . وشاهد لوكر ثلاث فتيات جميلات برفقة ثلاث خادمات حبشيات . وأعجب لوكر بحسن معاملة نساء مسقط لخادماتهن حيث كن في أحسن حال وكأنهن من نفس العائلة . وكان لوكر يستعمل كلمة الحورية للبنت العمانية والسبب هو أن إحدى الفتيات العمانيات الثلاث كانت تجرب زوجاً من أقراط الأذن لشرائها فلمحها لوكر عندما أماطت الحجاب عن وجهها قليلاً فتعجب من حسنها الأخاذ وجمالها المفرط . ولما أخبرتها إحدى صديقاتها بأن الأجنبي (لوكر) يراقبها غطت وجهها في الحال . وقد بالغ لوكر عندما قال بأن الموت يكون جزاء الرجل الذي ينقذ امرأة عمانية تسقط في البحر أو يساعد أخرى عثرت في الطريق وسقطت أرضاً .

إن سوق مسقط، على حد وصف لوكر، مليء بأنواع البضائع من منسوجات صوفية إلى حريرية وأخرى قطنية وكتانية مستوردة من جميع أنحاء العالم . وتشاهد في المخزن، كما يقول، شخصاً إيرانياً أو أفغانياً تحيط به منتجات من مختلف أقطار شمال غرب آسيا الثرية . وهو كأبناء جلدته ضخم الجثة بلحية سوداء جالساً على سجادة أصفهانية أو مازندرانية (مدينتان في إيران) وعلى رأسه قبعته الصوفية

المخروطية بعلو حوالي قدمين مصنوعة من صوف الغنم المتنوع الألوان وهو يدخن النارجيلة .

ومخزن آخر يديره تركي بثوب أنيق فضفاض وأكمام عريضة وعلى رأسه الطربوش الأحمر لفت حوله قطعة قماش خضراء أو بيضاء مطرزة . وآخر يبيع القماش جالساً يدخن الغليون الطويل (وتبلغ أطوالها عادة بين ٤ - ٦ أقدام) عارضاً بضاعته وهي عبارة عن أقمشة كتانية وقطنية وصوفية غالية الثمن مع الحريرية والقطنية . ويكلم زبائنه بكل أدب . ومخزن آخر يديره هندي على مذهب البهرة المسلمين بثيابه البيضاء الناصعة كالثلج وعمامته الصغيرة جاء من بلاده محملاً بالبضائع الثمينة والأحجار الكريمة المصاغة وغير المصاغة التي تشتهر بها الهند وجزيرة سيلان . والمخازن مليئة أيضاً بالمخمل والأقمشة المطرزة الجميلة المستوردة من منطقة البنجاب (الآن مقسمة بين الهند وباكستان) إلى جانب الصناديق وقاطعات الورق المصنوعة من خشب الصندل الطيب الرائحة والمزخرفة أو المرصعة بالعاج أو الأبنوس أو الفضة المستوردة من بومباي التي تشتهر بصنعها وتصديرها . ثم يقول لوكر (أن النساء العربيات في المنطقة (الخليج العربي) مولعات بالبضائع المصنوعة من خشب الصندل . كما لاحظ أن ممارسة التجارة في عمان لم تقتصر على المسلمين بل هناك من أديان أخرى . فواحد يبيع بضاعته التي تفتقر إلى الجودة ودقة الصنع على حافة الصحراء . وباعة آخرون يعرضون بضائعهم في الطريق (وهم عادة من المحتاجين والمتوسطي الحال) وهي تتألف من كل ما يحتاج إليه سكان المدن والبدو والقادمين إلى المدينة .

إلى جانب باعة سروج الخيل أو أغماد الخناجر المطرزة أو الزمزميات وأرشحة الخيل والبغال والحمير المزينة بالأصداف البحرية . ثم الصياقلة (مفردها صيقل وهو صانع رصاص البنادق والمسدسات ومصلح الأسلحة النارية) وهم يبيعون مختلف أنواع الأسلحة النارية وأخرى برتغالية قديمة وبنادق أسبانية صغيرة ذات فوهة يزداد عرضها في النهاية شبيهة بالبوق ثم مسدس الفارس الإيراني الجميل المزين بالفضة إلى بنادق صيد بريطانية فاخرة الصنع وسيوف حادة الجانبين وسيوف

تحمل السيف) و (هلا يكون حامل السيف منتصراً على الدوام) و (ليعش حامل السيف طويلا) . ويقول لوكر إن زيارة واحدة للسوق مثيرة حقاً للغاية لكل متابع ودارس للأحوال الاجتماعية . غير أن السوق، على حد رأيه، ضيق للغاية بحيث يصعب على أكثر من حصان واحد المرور فيه وهو غاص بالناس من شروق الشمس حتى غروبها حيث تسمع أصوات الضحك والتدافع وتبادل التحايا بضغط الصدور إلى جانب أصوات صانعي الأدوات النحاسية وهم يضربون على النحاس والحدادين يطرقون الحديد بعد استخراجه من النار بالمعاول ومئات الاسكافية وصياح الباعة لجذب المشترين . ثم مناظر الكلاب السائبة وهي في عراك مع بعضها البعض وشتم المكاريين (سائقي الحمير) لدوابهم وحداء سائقي الجمال الحزين النغمات .

وباختصار فكل شخص يضيف ما يستطيع إضافته إلى الصخب والضوضاء . وحفظ أصحاب المخازن محلاتهم من حر الشمس بالحصرات . وتملأ جو السوق أنواع الروائح الطيبة المنبعثة من مختلف أنواع العطور والأفاوية والبهارات ودهن الورد . . .الخ. ويلاقي الشخص الذي يبغي المرور بالسوق مهمة صعبة في اجتيازه .

ولاحظ لوكر اختلاف زي التجار والناس فملابس البدو متميزة بالإزارات التي تغطي النصف الأسفل من الجسم والنساء اللواتي يغطين الوجه بعباءاتهن الصفراء وأحذيتهن المراكشية الحمراء المعقوفة الحافة من الأمام .

وقسم آخر من السوق مخصص لطهي الأطعمة وبيعها وصنع الحلويات والقصابين وباعة السمك والفواكه والخضراوات . وأمام كل دكان باعة المرق المتألف من طبخ الخضر واللحم ويقدم في صحون إلى المرتادين بسعر زهيد . وصانعو الحلويات في مسقط مشهورون بحلوياتهم اللذيذة .

وهناك نوع من الحلوى يسمى في جميع أنحاء الشرق الأدنى باسم مسقط وربما هي التي يقول عنها لوكر أنهم يصنعونها من مزج حليب الناقة بالطحين والعسل والزبد . وهي مغذية وطيبة المذاق وصحية وتباع بشكل قطع مساحة كل واحدة بوصة مربعة . ويذبح قصابو مسقط الماعز والجمال ويندر وجود

لحوم الضأن والبقر وليس هناك أي طلب عليهما ولا وجود للحم الخنزير لتحريم الإسلام له، وان إطلاق كلمة خنزير على أي شخص تعتبر إهانة كبيرة. وأعراب شرق الجزيرة العربية مغرمون بلحم الجمال كثيراً، ويعتبر ذبح جمل صغير السن للضيف تقديراً كبيراً عند عرب الصحراء ودليلاً على احترام منقطع النظير له.

ويظهر أن لوكر قد تذوق لحم الجمل حيث يقول (إن لحم الجمل البالغ من العمر شهرين إلى أربعة أشهر نفيس خاصة عندما يشوى ويفوق لحم العجل)[٣].

ويعيش فقراء مسقط على السمك المتوفر بكثرة ورخيص السعر. ثم يقول، وأعتقد أن قوله دون سند علمي، إن اقتصار الكثير من مواطني مسقط على أكل السمك وعدم تناولهم الخبز أو الخضراوات أو الفواكه أدى إلى تفشي داء الجذام المنتشر، بادعائه، في شرق الجزيرة العربية. ويرفد كلامه بأن نصف سكان مسقط على الأقل يعيشون طيلة أيام السنة على السمك فقط (صيده، تقطيعه، تمليحه وتجفيفه).

وأن كميات هائلة من السمك المجفف بالدخان أو بأشعة الشمس يتم تصديره إلى إيران والهند وجزر الملايو وزنجبار وموريشيوس. ويقدمه أهل البلاد كطعام إلى عمالهم وحماليهم. وأن كميات كبيرة منه يستهلكها ملاحو السفن والبواخر عدا ضباطها ومهندسيها. فغالبية الملاحين هم من شرق الهند أو أفريقية الشرقية الذين يعيشون كلياً تقريباً على السمك المدخن أو الكاري (وهي أكلة هندية كثيرة التوابل تطبخ مع السمك الطازج أو المدخن ومع الدجاج أو البيض والأرز).

وسوق مسقط، كما لاحظ لوكر، قليل الخضراوات لأن المنطقة المحيطة بمسقط، حسب تعليله، صخرية أو قاحلة والمناخ حار جداً لا تطيقه الخضراوات ولهذا يلاقي الفلاحون صعوبة كبيرة في زراعتها تزرع فقط في المناطق التي تتوفر بها مياه الإرواء الدائمة. ويزرعون الثوم والبصل والفجل الأبيض والبامية والخيار الصغير الحجم، وهذه فقط هي الخضراوات التي شاهدها لوكر في سوق مسقط. يتجول لوكر في طرق مسقط وشوارعها وقال أنها ضيقة تفتقر إلى النظافة. وبيوت الأثرياء

لا تزيد على طابقين مشيدة من اللبن (الطابوق المجفف بالشمس) بسقوف مستوية ونوافذ محمية بالحديد مما يجعل البيت قليل النور . وتعيش الطبقات الفقيرة في أكواخ صغيرة مشيدة من كتل الطين المجففة بالشمس بسقوف مستوية . ويستحيل النوم داخل البيوت ليلاً خلال الصيف لارتفاع درجة الحرارة حتى منتصف الليل والبيوت مليئة بالحشرات المختلفة والعقارب والجرذان وذات الأربعة والأربعين التي تسرح وتمرح كما تشاء في الطبقات السفلي بعد حلول الظلام . والعجيب أن هذه الحشرات تتجنب السقوف لذا صارت خلواً منها .

أما المساكن خارج حدود المدينة فقد شيدت بصورة أبسط فهي لا تزيد عن كونها أكواخاً صغيرة عبارة عن عيدان قائمة ارتفاعها حوالي السبعة الأقدام مغطاة بسعف النخيل وحصرات القصب . ويعيش أهل البيت على الحصرات والسجاد الرخيص الثمن التي تفرش على الأرض بين الحمير والماعز والكلاب والدجاج والبط . وفي مسقط أربعة أو خمسة جوامع واسعة مربعة الشكل مشيدة بالحجر خالية من الزخارف والنقوش ولولا وجود القباب والمآذن لصار من الصعب تمييزها عن البيوت .

إن مدينة مسقط وهي عاصمة دولة عمان المستقلة محاطة من ثلاث جهات بالأسوار التي يعوزها التصليح والطرق المؤدية إلى بوابات الأسوار وهي ثلاثة أو أربعة ضيقة جداً ومظلمة .

والبوابات مصنوعة من الخشب وأقفالها من الحديد ولكنها لا تقدم دفاعاً كافياً في حالة أي هجوم عليها . وعدد سكان مسقط بين ٦٠ – ٧٠ ألف نسمة تسعون بالمائة منهم مسلمون والباقون مكونون من الهنود واليهود والأولون مقيمون بصورة مؤقتة . وتعتبر مسقط من أكثر بقاع العالم حرارة حيث تصل الحرارة بين ٣٤ و٤٤ بالظل (١١٠ – ١٣٠ فرنهيت) خلال الصيف الذي يستمر تسعة أشهر . والمطر بعمان وباتجاه الشمال نادر أو معدوم . ويبدأ الشتاء من كانون أول حتى شباط (فبراير) حيث تكون التربة رطبة بفعل الندى الثقيل . أما الخضر فمعدومة حتى الحشائش قليلة إلا إذا زرعها المواطنون . ويحصل السكان على الماء

الخاص بالاستعمال اليومي من الآبار بواسطة الدلاء حيث ينزل دلو مصنوع من الجلد (عادة الماعز) إلى خزانات بدولاب يوضع على فم البئر ويدور به حيوان (عادة حصان أو حمار أو جمل) .

وحيث تكون هناك قطعة أرض (تراب فوق صخور) فهي عادة خصبة تنبت حشائش وتنتج محاصيل وخضراوات إذا ما زرعت بجهد قليل، وفي هذه الحالة يكون الإرواء مهماً .

حدث أثناء وجود لوكر وزملائه في مسقط أن احترقت خلال الليل سفينة أوروبية محملة بالتمور كانت راسية بالميناء وأتت النار عليها ومابها من حمولة . كما حصل خلال زيارة لوكر لمسقط وقبل مغادرته لها بقليل أن انتقل سلطان مسقط إلى رحمة الله بصورة مفاجئة أثناء تواجده في مهمة رسمية خارج العاصمة وأن أحد أخوته أخذ قيادة الجيش من بعده . وقد وصلت أخبار من بومباي تفيد بأن السلطان قد اغتاله في خيمته أخوه الأصغر منه وهو الذي أعلن نفسه قائداً للجيش وكان يحرص على عدم إذاعة خبر وفاة السلطان وعدم وصوله إلى العاصمة . وقد مر الحدث دون تدخل من أية قوة خارجية . وعند إقلاع باخرتنا من ميناء مسقط لمح الركاب عن بعد ميناء جبرة الذي ترابط به سفن معبأة بجنود السلطان . وتقع جبرة على بعد أربعة أميال شمال غرب مسقط وهي كالأخيرة محاطة بالمرتفعات وتفصلها عن جارتها مسقط سلسلة من الصخور التي تشكل الحدود الغربية لميناء مسقط[٤] .

مرت الباخرة بعد مسافة عشرة أميال شمال ميناء مسقط بجزيرة صغيرة لا يزيد قطرها عن ثلاثة أميال يسرح بها الماعز البري فقط حيث لا أثر لسكنى بشر فيها . وكان لوكر يستغرب من حياة هذا الماعز دون وجود طعام حيث الخضرة قليلة في الجزيرة .

وفي صبيحة اليوم التالي دخلت الباخرة مضيق هرمز الذي يجعل لوكر عرضه في أضيق نقاطه حوالي عشرين ميلاً والمعروف أن عرض المضيق ٤٦ كم[٥] .

ولكن لوكر قد يكون على صواب حيث أكد أن المسافة كانت في أضيق نقاط المضيق إضافة إلى أنه كان يقدر العرض دون استخدام مقياس ، ويشكل مضيق هرمز مخرج الخليج العربي إلى المحيط الهندي . وصار إلى يسار الباخرة

عند سيرها الرأس وجزيرة مسندم التي كان فيها آنذاك محطة تلغراف هندية – أوروبية . كما في الجزيرة بيت مشيد من الحجر لسكنى أربعة بريطانيين يعملون في المحطة . ولا تزيد مساحة جزيرة مسندم، برأي لوكر، عن ٢٠٠ ياردة مربعة وهي صخرية قاحلة تجلب إليها كل ضروريات الحياة حتى الماء بواسطة السفن من ميناء بندر عباس . ولا يحسد الموظفون القاطنون فيها حيث هم محرومون ليس فقط من مباهج الحياة بل حتى من ضرورياتها .

مرّ لوكر في صباح اليوم التالي بين جزيرتين هما قشم في الشمال وهرمز التي أعطت اسمها للمضيق الذي يربط الخليج العربي بخليج عمان إلى الجنوب . وخليج عمان أصغر بكثير من الخليج العربي غير أنه مهم تاريخياً حيث كان في السابق قلعة المحتلين البرتغاليين الرئيسية في الخليج العربي . ويمكن رؤية بقايا قلعة واسعة شيدها البرتغاليون على مساحة كبيرة عند النقطة الشرقية من الجزيرة . وأكد لوكر أن جماعته أخبرته بوجود تحصينات صغيرة على الساحلين الشمالي والجنوبي لجزيرة قشم مما يدل على أن البرتغاليين قد سيطروا فعلياً على مضيق هرمز لأكثر من قرن ولكنهم طردوا من هذه التحصينات سنة ١٦٢٢ من قبَل العمانيين والجزيرتان تعودان الآن إلى سلطان مسقط ويسكنهما فقط صيادو السمك مع عوائلهم .

ثم مر لوكر بقرية سماها لينجا يسكنها عرب يعيشون بأكواخ بسقوف مستوية مشيرة من الخشب مغطاة بالطين المزوج بالقش . وقرية لينجا، حسب وصف لوكر، عربية تعود إلى البحرين استأجرتها من حكومتها دولة إيران .

وتقع لينجا في منطقة جميلة وأرض خصبة غنية بموارد الماء العذب على النقيض من ميناء بندر عباس الإيراني . ورغم أن بيوت القرية قد شيدت من الطين أو اللبن إلا أن شوارعها نظيفة للغاية وتقع القرية وسط واحة من النخيل والخضرة الوارفة . وسكانها كلهم عرب يتكلمون اللغة العربية ويتحلون بالشمائل والعادات العربية . وسكانها العرب أكثر تقدماً من الإيرانيين المتواجدين في الموانئ الصغيرة على طول الخليج العربي .

والعرب الذين يسكنون الساحل الفارسي من الخليج العربي فخورون

بعروبتهم يرتدون الملابس العربية نساءً ورجالاً . ولا يسمح للسكان العرب بالتغلغل لأكثر من ١٠٠ ميل بالمنطقة وهم قانعون بعزلتهم وسعداء جداً بحياتهم . ويقول لوكر أن هذه القرية بالواقع هي جنة عدن الخليج العربي بأسره .

وبنفس الوقت يمتاز عرب هذه القرية بالأناقة والنظافة مقارنة بالفرس القاطنين في السواحل . وحتى نساء هذه القرية العربية أكثر تقدماً حتى من قريناتهن العربيات بالساحل المقابل في كل مجال . ويظهر أن نساء لينجا مولعات بالألوان الأحمر والأصفر ويرتدين ملابس ذات لون واحد منها . وأن جمال هذه الألوان يعطي رونقاً أكثر إلى القرية ويجعلها أشبه بواحة في صحراء . وأن منظر جموع الفتيات والنسوة في ملابسهن الجميلة وعليهن الحلي ويسرن ببطء واستقامة وهن يحافظن على توازن جرار الماء فوق رؤوسهن بالنسبة لأجسامهن المائلة ويحملن الجرار من حوض الماء الكبير الذي يمتلئ من بئر قريبة منظر يسر العين .

إن عدد الأحواض التي تزود القرية بالماء يربو على الإثني عشر منتشرة بين أشجار النخيل وعلى بعد حوالي نصف ميل من ساحل البحر ، ويمكن مشاهدتها عن بعد حيث فوق كل منها غطاء أشبه بالسقف مشيد باللبن على شكل ضريح . وعمق الآبار حوالي خمسين قدماً وقطرها عشرون والبناء فوق البئر بارتفاع ٢٠ قدماً لحماية الماء من الغبار وحرارة الشمس ولهذا كان الماء صافياً كالبللور وعذباً للغاية .

على الساحل الشرقي من الخليج العربي جنوب لينجا يقع رأس أوفير وإلى الغرب منه تقع جزيرة البحرين . والبحرين دولة مستقلة يحكمها شيخ عربي ، ويعود الفضل إلى أمراء البحرين في استتباب الأمن وتقدم البلاد حيث كانت قبل سنة ١٨٥٠ تسودها الفوضى بعيدة عن حكم القانون .

تقع إلى شرق رأس أوفير مصائد اللؤلؤ التي يشتهر بها الخليج العربي حيث يكثر اللؤلؤ في مصائده خلال وقت معين من السنة وفي هذا الموسم يكثر غواصو اللؤلؤ لالتقاط أصداف اللؤلؤ الثمينة والتي توجد أحياناً بكثرة بأعماق الخليج على بعد ٢٠ - ٦٠ قدماً تحت وجه الماء . وتتجمع هذه الأصداف بالطريقة التالية : يبدأ الغواص عمله

عادة وهو عار بكيس مربوط حول بطنه يضع فيه أصداف اللؤلؤ وهو مسلح بسكين حاد في غمد من الجلد يضعها على القسم الأعلي من ذراعه الأيسر ويمسك حجراً ثقيلا أو قطعة حديدية أو رصاصية تربط بإحكام إلى حبل مرتبطة من النهاية الثانية بالسفينة ويقفز بها الغواص إلى الماء حتى تنزل به إلى الأعماق .

ويسير الغواص في قاع البحر وعيناه مفتوحتان لالتقاط الأصداف التي يحمل منها قدر المستطاع بعد التخلص من الوزن الذي حمله معه فيصعد عندئذ إلى سطح الماء حالاً حيث ينتشله جماعة إلى السفينة . ويبقى على ظهر السفينة حتى يفرغ أحد ملاحي السفينة ما التقطه الغواص من الأصداف (وعادة نفس الشخص حتى يتجنبوا التزييف) .

وليست كل الأصداف الملتقطة فيها لؤلؤ علي الدوام بل تكون أحياناً خالية أو غالباً ما يكون الحيوان ميتاً منذ أسابيع أو أشهر أو حتى سنين . وفي هذه الحالة إما أن تكون الصدفة خالية من اللؤلؤ أو فيها لؤلؤة بلون بني فاتح أو صفراء أو سوداء وكلها عديمة القيمة .

ويصعب بل من المستحيل التمييز بين الأصداف الحية والميتة داخل الماء .

ما إن يستريح الغواص ويستنشق الهواء الكافي حتى يبدأ في الغوص ثانية فيقفز إلى الماء . وفي العادة يكون هناك غواصين اثنين في كل سفينة يتناوبان الغوص، فواحد يلتقط أنفاسه في الخارج والآخر يعمل في أعماق البحر . ويبقى الغواص تحت الماء عادة بين ٢ - ٣ دقائق وبعضهم يبقى خمس دقائق .

وبصورة عامة فهي مهنة شاقة جداً وخطرة وتؤثر على الرئتين بصورة مخيفة .

والغواصون عادة لا يعيشون طويلاً ومن المستحيل مشاهدة غواص طاعن في السن وهم نحفاء جداً لهم مظهر خاص نتيجة إجهادهم أعينهم وهم داخل الماء . ويتطلب الغواص شجاعة لا متناهية وحضور فكر حيث أن مياه البحر مليئة بالمخلوقات الخطرة أمثال القرش **SHARK** التي تهاجم الغواصين، والغواص معروف بالحذر الشديد واليقظة المستمرة . والكثير من الغواصين يصارعون هذه المخلوقات الشرسة داخل الماء وعادة ما يخرجون منها منتصرين . ولكن يسمع في كل فصل غوص عن دفع

بعض الغواصين لحياتهم ثمناً لشجاعتهم ومنازلتهم هذه الكائنات الكاسرة . ولهذا السبب يتناقص عدد الغواصين كل عام حيث تقطع أسماك القرش أجسام بعضهم وتفترسهم . ولهذا السبب يتقاضى الغواصون أجوراً عالية جداً خاصة المحترفين منهم وهم عادة نادرو الوجود . ولا يدور في خلد النساء عندما يتزينَّ باللؤلؤ مدى المخاطر التي يلاقيها الصيادون في الحصول عليه(٦) .ثم أقلعت الباخرة في طريقها إلى الكويت، فمرت بجزيرة سماها لوكر فلوشه تابعة لشيخ الكويت . وقد وصلت الباخرة الكويت ورست على بعد ميل ونصف من الساحل لأن ربانها لا يعرف ميناء الكويت جيداً حيث كانت هذه زيارته الأولى له . وكان على ظهر الباخرة تاجر عربي ثري لديه الكثير من البضاعة جلبها من بومباي وهو من أقارب شيخ الكويت وبذلك كان لديه نفوذ وتأثير كبيران ووعد ربان الباخرة بكل مساعدة مع المسئولين الكويتيين إذا ما أقنع أصحاب البواخر بالوصول إلى الكويت مرة كل شهر (على الأقل) .

أطلقت الباخرة ثلاثة مدافع عند دخولها خليج ميناء الكويت على سبيل التحية ، أحدثت دوياً هائلاً وسط الهدوء المخيم . والخليج محاط بالصحراء من الشمال والغرب والجنوب . وقد اجتذبت الإطلاقات الأهالي في مدينة الكويت فخرجوا إلى الساحل ينظرون إلى الباخرة القادمة . ولم تكن هناك أية سفينة عن قرب في الميناء ولكن كانت أعداد كبيرة من السفن عن بعد سحب بعضها إلى الساحل، وهناك أعداد كبيرة من الرجال يرتدون المآزر يخرجون من بناية ظهر أنها قصر شيخ الكويت . وردت سلطة الميناء تحية الباخرة القادمة بمثلها حيث أطلقوا ثلاث إطلاقات أحدثت الثالثة منها فرقعة غريبة وكأن حادثاً قد طرأ حيث أوقعت ارتباكاً بين الناس في الميناء .

ثم وصلت سفينة مجهزة بكابين مغطاة بسجادة خضراء كبيرة ويعمل فيها ١٠ - ١٢ ملاحاً يلبسون المآزر يغني بينهم شخص يظهر من ملامحه أنه أفريقي ذو صوت رخيم ويردد معه الملاحون في نهاية كل مقطع . وكانت السفينة متجهة نحو الباخرة التي تقل لوكر وزملاءه وهي مليئة برجال على وسامة بملابس بدوية ملونة مسلحين بالسيوف والخناجر والبنادق والمسدسات

وهم حرس شيخ الكويت الخاص . وخرج من الكابين شيخ الكويت حيث سلم عليه قريبه التاجر الذي أتى في الباخرة وقبّل كل منهما الآخر في الأكتاف . وقدم التاجر إلى شيخ الكويت بكل أدب قبطان السفينة وصار يترجم ما يقوله لشيخ الكويت إلى اللغة الهندستانية التي يفهمها قبطان الباخرة .

كان شيخ الكويت طويل القامة وسيم الملامح مليئا بالرجولة ذا لحية فضية تتلألأ على صدره . وقدر لوكر عمر شيخ الكويت بأكثر من ثمانين سنة يدل وجهه على ذكاء مفرط وكان في غاية الأدب والحشمة بكل ما يتفوه به . ويرتدي بدلة عربية من الحرير وفوقها عباءة بنفسجية اللون مطرزة بالذهب ويداه تلمعان بالجواهر (يقصد خواتم الأصابع) - وحول خصره حزام حريري أبيض فيه خنجر صغير بقبضة من الذهب الخالص مرصعة باللؤلؤ والزمرد والياقوت . ويعتقد لوكر أن الخنجر كان للزينة ليس إلا . ووراء شيخ الكويت جمع من أتباعه كلهم بملابس فاخرة مزينة بالجواهر الثمينة . وشاهد لوكر بين حاشية الشيخ شباناً أفارقة يحمل أحدهم سيفاً ذا حد واحد وآخر يحمل سيفاً محدباً فاخر الصنع مرصعاً بالجواهر . وأفريقياً ثالثاً يحمل نارجيلة إيرانية الصنع وهي كما يقول لوكر (أفخم وأجمل نارجيلة رأيتها في حياتي) وآخرين يحملون غلايين (جمع غليون) .

ويظهر أن شيخ الكويت قد تهيأ للزيارة التي تحولت إلى ترحيب منه بقبطان الباخرة .

ودعا القبطان شيخ الكويت إلى رؤية أقسام الباخرة فزار الكبائن الخاصة بالمسافرين والمطبخ وغرفة الماكينة التي أعجب الشيخ بها كثيراً حيث أدارها العاملون أمامه إلى الأمام ثم للخلف . ويظهر أن شيخ الكويت لم يصعد إلى باخرة ويتفقد أجزاءها من قبل .

كانت جموع الناس تتقدم للسلام على شيخ الكويت حيثما يذهب ويحيونه بالطريقة الخاصة .وكان العرب والهنود (يقصد بالعرب غير الكويتيين) يحيون شيخ الكويت بانحناءة تصل وسط جباههم وأكفهم إلى الخلف . وتناول شيخ الكويت ، كما يذكر لوكر، بعض المرطبات مع (المسافرين) في بهو السفينة التي كانت عبارة عن كوب صغير من القهوة المركزة الخالصة عملت حسب

الطريقة الشرقية ثم كأساً من شراب الليمون وبعض الحلويات .

ثم دعا شيخ الكويت ربان الباخرة وكل المسافرين الأوربيين لتناول طعام العشاء معه في القصر . وكان فرح ربان الباخرة بهذه الالتفاتة كبيراً حيث كان يأمل أن تعود عليه بنفع كبير . وأرسل الشيخ سفينة خاصة لأخذ ضيوفه عند غروب شمس اليوم التالي . وأخبر الشيخ ضيوفه بأن إحدى قنابل مدافعه قد انفجرت صدفة وقتلت اثنين من رجاله وجرحت أربعة أو خمسة جروحاً بالغة . وبسبب هذا الحادث المؤلم لم تطلق المدفعية أية إطلاقة احتراما للضيوف .

لدى وصول الضيوف الأوروبيين إلى قصر شيخ الكويت كان المكان غاصاً بالمتفرجين من رجال ونساء لمشاهدة قبطان السفينة التي أطلقت قذائفها خلال الماء وتسير دونما شراع أو مجاديف . وكان القبطان القصير القامة في بدلته الجديدة وسيفه المستقيم الصغير يتدلى إلى جنبه قد وضعه للأبهة فقط . وكانت الجموع مشتاقة لرؤية المسافرين الأوروبيين خاصة النساء اللواتي لم يشاهدن (ربما) أوروبياً في حياتهن .

وقد عمل حرس الشيخ طريقاً خاصاً لمرور الضيوف وسط الازدحام الشديد .

وأخيراً وصل المدعوون إلى قصر الشيخ وكان بناية ضخمة مربعة مشيدة بالطابوق وفي داخله ساحة واسعة بوسطها حديقة مليئة بالأشجار والزهور . وأخذ الشيخ ضيوفه إلى غرفة الاستقبال وكانت فسيحة يدخل إليها الهواء النقي من النوافذ والأبواب المؤدية إلى الساحة .

والغرفة مصبوغة باللون الأبيض وزين السقف بالصور الجدارية وفرشت أرضية الغرفة بالسجاد الإيراني الفاخر . وفرشت على طول الجدران الفرش البنفسجية اللون وهي نوع من الأرائك الواطئة العريضة يجلس عليها أهل البيت والزوار وأرجلهم على بعضها . وجلسة هذه الأرائك، حسب تجربة لوكر متعبة (لأنه لم يعهد الجلوس عليها من قبل) بالنسبة للأوروبيين غير أن العرب معتادون عليها . وهناك عادة، يجعلها لوكر إسلامية، هي أن يترك الداخلون إلى الغرفة من النساء والرجال أحذيتهم خارج الباب أو يخلعونها قبل الجلوس على الأرائك في الديوان . ويقول لوكر أن الأوروبيين والعسكريين مستثنين من عادة

خلع الأحذية أو أنهم يستبدلون أحذيتهم بأخرى خفيفة يسميها المراكشية يلبسونها ما داموا داخل الغرفة .

في الوقت الذي يجب على الأوروبي خلع قبعته عند دخوله البيت أو الغرفة فإن المسلمين على العكس عليهم الاحتفاظ بها سواء أكانت قبعة فارسية أو كوفية عربية بالعقال أو طربوشاً تركياً إلا إذا آوى إلى فراشه ليلاً .وعلى هذا الأساس، على حد قول لوكر، بقي الضيوف لابسين القبعات عند دخولهم غرفة شيخ الكويت تاركين أحذيتهم عند المدخل بعهدة أربعة أفارقة يحمل كل في يديه نعلاً مراكشياً أصفر جديداً . وجلس الضيوف وأرجلهم على بعضها البعض، ودخل قبطان الباخرة في حديث مع الشيخ كان يترجمه له التاجر الكويتي . وأحضرت النارجيلات والغلايين التي ملئت بالتبغ الطيب الرائحة أشعل النار فيها خدم أفارقة . وأحضر خادم مبخرة فضية تنبعث منها رائحة طيبة للغاية ووضعها وسط الغرفة . وجلس خادم إلى جانب كل أوروبي يحركون لهم برفق مراوح يدوية كبيرة من ريش النعام لأجل نشر رائحة البخور الطيبة إلى جميع أرجاء الغرفة . وجاء آخرون يحمل كل منهم طبقاً فضياً صغيراً فيه ستة فناجين ذهبية صغيرة ملئت بالقهوة العربية الطيبة المذاق . ثم قدمت كئوس الشربت وكان شراباً لذيذاً للغاية يشبه في طعمه شراب الليمون . ثم وزعت الحلوى المسقطية (نسبة إلى مسقط) .

أرسل شيخ الكويت معنا ثمانية من حرسه الخاص ليصحبونا في زيارة معالم مدينة الكويت - والكويت برأي لوكر تشبه تماماً مدينة مسقط وهي مدينة نظيفة للغاية .

وتقع مدينة الكويت على بعد ٤٠ ميلاً من شط العرب وعلى ساحل الخليج العربي . وهي ميناء بحري عدد سكانه من ١٥ - ٢٠ ألف نسمة تقريباً كلهم عرب وهي أقصى ميناء بحري شمال الأحساء أو الحجر وهي البلاد المعروفة باسم العربية الصحراوية . ومناخ الكويت حار بشكل مخيف حيث أنها محاطة من الشمال والجنوب والغرب بصحراء الدهناء . والمناطق بجوار الكويت حارة وقاحلة فيما عدا حديقة شيخ الكويت الصغيرة في قصره . ولا يمكن رؤية أية شجرة أو نبتة داخل أو خارج الكويت على مدى البصر .

وليست هناك تربة بل رمال من الصحراء القريبة، ولاحظ لوكر أن الكثير من البيوت البعيدة عن الشاطئ وقد غاصت إلى سقوفها تقريباً في الرمال بفعل الرياح . وسمع لوكر بان هناك بعض الواحات الصغيرة في الصحراء على بعد ٣٠ ميلاً من المدينة منتشرة هنا وهناك كالجزر في المحيط تتوفر بها الحشائش والشجيرات نتيجة وجود الماء .

ويجلب أهالي الكويت ما يحتاجون إليه من الخضراوات والحشائش والعلف لحيواناتهم من مدينة البصرة التي يجلبون منها أيضاً الأرز والتمور والقهوة والشعير والمحاصيل والتبن . . بواسطة السفن . وأن السفن التي يستخدمونها في نقل موادهم ثقيلة تحمل بين ٥٠ - ٢٥٠ طناً وأن جسم السفينة عريض جداً والعارضة التي تمتد على طول قعر السفينة حادة والدفة فظة غير مألوفة كثيراً وكبيرة بشكل مضحك . ويقف على قمتها مدير الدفة يديرها بواسطة عمود طويل مربوط في نهاية الدفة بصورة أفقية، وتكون في هذه الحالة كقبضة للدفة . وفي السفينة صارية واحدة في وسط السفينة . والغريب أن الصاري يميل إلى الأمام بزاوية قدرها ٦٠ درجة عكس السفينة الأمريكية حيث يقف الصاري بكل استقامة أو يميل قليلاً إلى الوراء . وحتى أعلى الصاري وضع الشراع الكبير الذي عُلِّق بواسطة قطعة خشبية ثبتت بها بكرة .

والغريب في هذه السفينة هو أنها عندما تكون محملة وتسير في الماء يكون قوسها على مسافة ٢ - ٦ أقدام فقط فوق وجه الماء بينما يكون الشخص الذي يدير الدفة على مسافة ١٠ - ٢٠ قدماً إلى الأعلى حسب حجم السفينة . وعلى الرغم من الشكل الشاذ لهذه السفن فإن عرب الخليج يستعملونها بصورة حسنة للغاية حتى أنهم يخاطرون بركوبها في أعنف ريح وأصعب مناخ ويصلون في بعض السفن الكبيرة منها إلى الهند ومدغشقر وموريشيوس وسواحل أفريقية الشرقية . إن رجال الكويت على الإطلاق تقريباً إما ملاحون أو تجار، حيث يتاجرون مع البصرة وسواحل الخليج العربي ومع القبائل البدوية في الصحراء باللؤلؤ والبخور والأسلحة النارية وعتادها والأقمشة والسروج

والسجاد ويحصلون على الجلود والأصواف والوبر واللبان والقهوة والموز والتمور . . الخ .

والكثير من أهالي الكويت يربون الغنم والخيول والحمير والماعز والجمال في الواحات وجمالهم مشهورة في جميع أرجاء البلاد العربية بسرعتها الكبيرة وتحملها، كما اشتهرت حميرها ببياضها الناصع . ونساء الكويت مشهورات بجدهن وعملهن المضي ومهارتهن في الكثير من الحرف اليدوية كالحياكة والغزل والنسيج . .الخ . كذلك بجمالهن حيث يعتبرن حتى من قبل الأتراك والفرس أجمل نساء منطقة الخليج العربي .

عند عودة لوكر وجماعته من جولتهم الحرة في مدينة الكويت وجدوا شيخ الكويت جالساً بنفس المكان الذي تركوه فيه يعطي أوامره ألى خدمه بخصوص العشاء الذي أعده لضيوفه الأوروبيين .

ومدت المائدة على الأرض حيث وضع الأكل على حصيرة هندية فاخرة مساحتها عشرة أقدام مربعة فرشت فوق السجادة الإيرانية الفاخرة المفروشة على أرض الغرفة . كما وضعت اثنتي عشرة وسادة ناعمة مغطاة بالقماش الأزرق بها شراشيب عند كل زاوية وضعت بشكل دائرة عند أبعاد متساوية من بعضها البعض خصصت لجلوس الضيوف . ومدت أمام كل وسادة حصيرة صغيرة صفراء اللون دائرية الشكل قطرها حوالي القدمين . وفي وسط كل حصيرة وضعت طاسة فضية على كل جانب منها كأس فضية تحوي الأولى على ماء والثانية على لبن دون معرفة نوع اللبن (من ماعز أو غنم أو بقر أو نياق) حيث لم تكن هناك أي من هذه السائمة في المدينة . وعلم الضيوف بعد ذلك أنه لبن نياق يحتفظ الكويتيون بها في إحدى الواحات القريبة ويجلبون لبنها كل صباح .

كان على المائدة طاقم سكاكين من الفضة جميل جديد ظهر أن التاجر الكويتي قريب شيخ الكويت قد جلبه معه من بومباي . وكان الضيوف الأوروبيون مشتاقين لرؤية شيخ الكويت

وابن أخيه وهم يستعملون هذه الأدوات لأول مرة حيث المعروف أن العرب يتناولون الطعام بأيديهم .

وقدم الطعام بأنواع كثيرة جداً من لحم الماعز المطبوخ إلى حمل مطبوخ وجمل مشوي بكامله وثلاثة أنواع من السمك وبلاو (طعام يتألف من أرز مطبوخ وسمن وبصل مقطع ولوز وكشمش) ودجاج مشوي ومطبوخ . إلى جانب أنواع الخضراوات والفواكه التي جلبت من البصرة . وأمر شيخ الكويت الضيوف أن يأكلوا من كل نوع وبدأ بذلك الشيخ نفسه حتى يظهر للضيوف سلامة الطعام (من أي سم) . وكان الشيخ وأقاربه يتناولون الطعام بأيديهم وهي طريقة الشرق .

وذكر لوكر أنه حتى السلطان العثماني، باعتقاده، يستعمل يديه في الأكل . وكان الخبز طيباً جداً من الحنطة المطحونة باليد . وتتألف مطحنة اليد من حجرين موضوعين على بعضهما أفقياً ويدور الحجر العلوي على مرود في الوسط يتحرك بواسطة خشبة توضع عمودياً في الصخرة . ويتساقط الحب بين الحجرين بواسطة ثقب ويسحق ويصبح طحيناً بالضغط واحتكاك الحجر العلوي بالسفلي . وكان على المائدة الكثير من الزبد والجبن المصنوع من حليب الماعز والغنم .

ويعتقد لوكر أن العرب يفضلون أكل الخضراوات على المستحضرات الحيوانية . وفي نهاية وليمة العشاء بدأ التدخين في النارجيلة والغليون وتقديم القهوة والشربت . وهنا استأذن شيخ الكويت من الضيوف لأداء الوضوء وفريضة الصلاة . وأثناء ذهابه للصلاة صار الضيوف يتحدثون عن الخبرة النادرة التي اكتسبوها . وعند عودة الشيخ دعا ضيوفه لاصطحابه إلى سطح داره والذي هو في العادة للتمشي والنوم ليلاً في الصيف ببلاد العرب . وحقاً، برأي لوكر، فالسطح هو أفضل مكان للتمتع بنسيم البحر مساءً والابتعاد عن الحشرات والبعوض والغبار . وتحفظ المفروشات أثناء النهار داخل البيت ثم تفرش ثانية بالسطح قبل الغروب بقليل .

ومن سطح القصر أشرف الضيوف الأوربيون على الخليج الذي وصفوه بالجميل الهادئ والذي يحوي ٣٠٢٤ جزيرة صغيرة قاحلة وشاهدوا باخرتهم راسية في البحر .

ويبدو أن جميع سكان الكويت يتجمعون في الأسطح للتمتع بالنسيم العليل الهابّ من الخليج . وشاهدوا من السطح مناظر قلما يرونها بأماكن أخرى (على حد قول لوكر). فهناك رجل يصلي بكل خشوع وأم تداعب طفلها وشابان يتحادثان وفتيات عربيات يغنين أغاني محلية . وعن بعد شاهدوا رجالاً يسيرون على الأقدام وآخرين على ظهور الخيل وغيرهم على الجمال ويشكل منظرهم صورة خلابة مع لون الأفق الذهبي في الخلف . وكأمريكي (على حد قول لوكر عن نفسه) ينام لأول مرة على سطح بيت عربي فقد شعرت بحالة غريبة هي أن جميع من في البيت وحتى سكنة البيوت المجاورة يراقبون حركاتي وسكناتي .

كان الظلام يحل، كما في الأقطار الجنوبية، حالما تغرب الشمس وهي ظلمة دامسة ويسرع الناس إلى بيوتهم حالما تحل العتمة خوفاً من اللصوص والحيوانات الضارية أو أن يضلوا الطريق وهو أمر اعتيادي لطارقي الصحراء خاصة في الليل .

ويخيم مع الظلمة سكون حيث تخفت أصوات الناس بالتدريج ويحل نباح الكلاب السائبة الكثيرة وأصوات الثعالب عن بعد وحتى الضباع التي تأتي على رائحة جثث الحيوانات المتعفنة .

هيأ مضيفنا شيخ الكويت فرشاً من الحرير وغرفة نوم يلعب بها نسيم البحر العليل فنام الضيوف بكل هدوء إلى حد أن الشيخ اضطر إلى إيقاظهم صباحاً خوفاً من أن تضربهم أشعة الشمس الحارة والتي يعرف الناس هناك أنها تسبب الصداع الشديد .

ولما حان موعد المغادرة شكرنا شيخ الكويت على كرمه الذي ليس له حدود . وقال له قبطان الباخرة التي أقلت الضيوف الأوروبيين بأنه سوف يعمل كل ما في وسعه لجعل ميناء الكويت من الآن

فصاعداً محطة توقف اعتيادية لبواخر الشركة . وأمر القبطان أن تطلق مدفعية الباخرة ثلاث قذائف كتحية مغادرة .

ومن حسن أدب شيخ الكويت المنقطع النظير أنه ظل واقفاً على الساحل محاطاً بشعبه حتى غادرت الباخرة وغابت عن الأنظار في عرض البحر .

لاحظنا عدم تعرض لوكر للشاي الذي نعرف ولع سكان المنطقة الشديد به والسبب هو عدم دخوله المنطقة بعد . فالمعروف أن الشاي لم يتم استعماله إلا حوالي سنة ١٨٧٥ . وكذلك عدم ذكر السجائر لأن هذه لم تعم في المنطقة إلا خلال الحرب العالمية الأولى والفترة التي تلتها[٧] .

الدكتور سامي سعيد الأحمد

الهوامش

١ - A. Locher, With Star and Crescent, (Philadelphia).

٢ - إشراف محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية الميسرة (القاهرة) ١٩٦٥، ص١٧٠٧ .

Locher, op. cit. pp. 17 - 22

٣ - لوكر، نفسه، ص٣٧ .

٤ - لوكر، نفسه، ص٢٣ - ٤١ .

٥ - د. سامي سعيد الأحمد، تاريخ الخليج العربي القديم، (البصرة، ١٩٨٥) ص٢٧ .

٦ - Locher, ibid, pp. 42 - 53.

٧ - نفسه ص٥٤ - ٧٧ .

الصراع البرا

حول تجارة الأسلحة في عم



...اني الفرنسي
...ان "١٩٠٠-١٩١٤م"



بقلم :
الدكتور فاضل محمد الحسيني

تصارعت بريطانيا وفرنسا كثيراً إبان العصر الحديث من أجل مناطق النفوذ في العالم، إذ اشتبكت الدولتان في حروب عديدة منها حرب الوراثة الأسبانية (١٧٠١ - ١٧١٣م) وحرب الوراثة النمساوية (١٧٤٣ - ١٧٤٨م) وحرب السنوات السبع (١٧٥٦ - ١٧٦٣م) وحرب الاستقلال الأمريكية (١٧٧٥ - ١٧٨٣م) وقد امتد التناحر بينهما إلى المحيط الهندي فالخليج العربي وبالتحديد إلى منطقة عمان مطلع القرن العشرين بسبب تجارة الأسلحة فيها .

سنتناول أبعاد هذا الصراع من خلال المحاور التالية معتمدين في ذلك على الوثائق الإنجليزية [ربما فتحنا الباب للباحثين الآخرين بتناول ذات الموضوع من خلال الوثائق الفرنسية] والمصادر العربية والأجنبية .

المحور الأول : دوافع اهتمام الدولتين (بريطانيا وفرنسا) بعمان .

المحور الثاني : مبررات الصراع البريطاني الفرنسي حول تجارة الأسلحة في عمان واتساع نطاقه .

المحور الثالث : كيفية إخماد الصراع وانتفائه .

أولاً : دوافع اهتمام الدولتين (بريطانيا وفرنسا) بعمان

أ ـ الاهتمام البريطاني بعمان :

ترجع أسباب الاهتمام الزائد لبريطانيا بعمان لكون الأخيرة تتمتع بموقع استراتيجي وتجاري مهم ولاسيما العاصمة مسقط التي تقع في الزاوية الجنوبية الشرقية من الجزيرة العربية على خليج عمان، وتبعد (١٣٠ ميلاً) عن مضيق هرمز الذي يشكل مدخلاً للخليج العربي، كما أنها تقع على بعد ٩٢ ميلاً من رأس الحد في أقصى الزاوية الشرقية من جزيرة العرب إذ ينحدر الساحل جنوباً نحو عدن ومدخل البحر الأحمر، كما أن العاصمة مسقط تقع على بعد ٨٨٠ ميلاً من مدينة بومباي الهندية. ويمتاز ميناؤها باتساعه لعدة سفن من أحجام كبيرة وتحميه الطبيعة من مختلف الجهات ماعدا من الرياح الموسمية التي تهب عليه من الشمال

الغربي، وعلى العموم، فقد ظلت مسقط من أهم مراكز التجارة والسياسة في حوض الخليج العربي بأسره[1].

ومما زاد من اهتمام الإنجليز بعمان فضلاً عن مركزها الاستراتيجي، صناعتها وثقلها السكاني وما تحلى به العمانيون من تقاليد حربية وخبرات بحرية[2].

ومن الأسباب الأخرى التي دعت بريطانيا للاهتمام بعمان وتقيم معها أوثق العلائق هي (الهند) تلك الدرة اللامعة في التاج البريطاني، فبعد أن أصبحت الهند بكاملها مستعمرة بريطانية عام ١٨٥٨م بعد أن تم القضاء على الثورة فيها فما لبثت أن تطورت على مراحل إلى إمبراطورية تنفذ سياسة استعمارية تخطط في لندن وتنفذ في بومباي ونيودلهي، فلم تكد أقدام الإنجليز تترسخ في تلك البقعة من الأرض ذات المستودع البشري والاقتصادي الهائل حتى أخذت أنظارهم تتطلع إلى الطريق المؤدي إلى الهند بحجة حمايته من الأخطار الخارجية، وبما أن عمان تقع على الطريق الاستراتيجي المؤدي إلى الهند وتعدها بريطانيا مفتاح الخليج العربي وهمزة الوصل إلى الهند الأمر فقد حملها ذلك على الاهتمام بعمان وعقد معاهدات الصداقة والتعاون معها ومحاولة فرض الحماية عليها.

وقد بدأت بريطانيا بالفعل تبني العلاقات المتينة مع عمان منذ مطلع حكم اليعاربة (١٦٢٤ - ١٧٤٤م)[3]، ولكنها لم تتسم بالاستمرارية، وغلب عليها طابع الود حيناً وسوء الفهم أحياناً أخرى[4] ونجد أن هناك صوراً للتعاون بين بريطانيا وعمان في عهد الإمام ناصر بن مرشد (١٦٢٤ - ١٦٤٩م) مؤسس سلالة اليعاربة مع ممثل شركة الهند الشرقية الإنجليزية فيليب وايلد (F. Wylde) تضمنت منح بعض الامتيازات للإنجليز كحرية التصدير والاستيراد وإعفاء تجارتهم من الضرائب[5]. ثم مرت العلاقات البريطانية العمانية بفترة من الجمود بعد أن أصيبت دولة اليعاربة بالتصدع وما صاحب ذلك من حرب أهلية تخللتها فترات من الغزو الفارسي لعمان وذلك بعد عام ١٧١٩م[6].

بعدها انتعشت علاقة بريطانيا بعمان بعد انتهاء الفوضى التي اجتاحت عمان والتي انتهت بتربع الإمام أحمد بن سعيد على سدة الحكم عام ١٧٤٩م

ليبدأ عهد جديد في تاريخ عمان هو عهد سلالة البوسعيد التي مازالت تحكم عمان حتى يومنا هذا، وبالرغم من أن الحاكم العماني الجديد رفض طلباً تقدم به الإنجليز لإنشاء وكالة لهم في مسقط أو الدخول في عقد اتفاقية معهم إلا أن علاقته مع شركة الهند الشرقية الإنجليزية كانت ودية وكان هناك زيارات لعمان من قبل مسئولين إنجليز إضافة إلى تدفق السفن البريطانية إلى ميناء مسقط للتزود بالماء والمؤن لدى توجهها من وإلى موانئ الخليج العربي والبحر الأحمر[٧] . ثم تطورت العلاقات البريطانية العمانية كثيراً عندما تم عقد أول اتفاقية سياسية بين عمان والإنجليز في عهد سلطان بن أحمد عام ١٧٩٨م وزادت العلاقات بين بريطانيا وعمان متانة خلال حكم السلطان سعيد بن سلطان حيث أبرمت اتفاقية بين الطرفين عام ١٨٣٩م تضمنت حرية التجارة والإقامة ونقل البضائع[٨] .

لقد ظلت بريطانيا تنظر بعين الاهتمام إلى عمان وموقعها وأخذت تتحين الفرص لتوثيق علاقاتها بعمان وتبذل قصارى الجهود في سبيل تحقيق هذا الهدف، وقد نجحت في ذلك عندما تهيأت لها الفرصة في عقد معاهدة للصداقة والتجارة والملاحة مع عمان في التاسع والعشرين من مارس عام ١٨٩١م وقد وقعها عن الجانب العماني السلطان فيصل بن تركي فيما وقعها روس ممثلاً عن الجانب البريطاني وقد حلت محل المعاهدة التجارية لعام ١٨٣٩م[٩] .

لاحظنا أن الإنجليز قد بذلوا جهوداً كبيرة في تعزيز علاقتهم مع عمان للأسباب التي وردت آنفاً، وقد كانوا على استعداد لمقاومة أية دولة أوروبية تطمع في تركيز نفوذها في عمان وكانت السياسة البريطانية تؤمن بأن سيطرة أية دولة أوروبية على مسقط يولد تهديداً مباشراً للهند من الناحية الاستراتيجية لأن ذلك سيمكنها من أن تصل بسرعة إلى مدخل الخليج العربي وبومباي وتهديد النفوذ البريطاني في المحيط الهندي والخليج العربي وقد أكد ذلك الماركيز لانسدون في مجلس الشيوخ البريطاني عام ١٩٠٣م حيث قال: "إني أقول وبلا تردد إن تأسيس أي قاعدة أسطولية أو أي ميناء محصن لأي قوة أخرى في الخليج العربي يعتبر تهديداً خطيراً للمصالح البريطانية وإننا سنقاومه بالتأكيد بكل الوسائل المتاحة لنا"[١٠] .

كما أكد ذلك العديد من السياسيين البريطانيين أمثال اللورد سولزبري رئيس وزراء بريطانيا (١٨٩٥ - ١٩١٢م) وكيرزن نائب الملك في الهند (١٨٩٩ - ١٩٠٢م) .

ب ـ الاهتمام الفرنسي بعمان :

أما الأسباب التي تقف وراء الاهتمام الفرنسي بعمان فهي تعود لعلاقة فرنسا بمنطقة الخليج العربي ككل إبان القرن السابع عشر للميلاد عندما أسست فرنسا شركة الهند الشرقية الفرنسية عام ١٦٦٤م[٢١]، وكان اهتمامها بمنطقة الخليج العربي لغاية عام ١٨١٠م نابعاً من رغبتها في بسط سلطانها على الهند فضلاً عن دعم المصالح الفرنسية في المحيط الهندي[٢٢].

أما علاقة فرنسا بعمان فكانت ترتكز في بداية الأمر على الاتجار مع جزيرة موريشيوس التي استولى عليها الفرنسيون عام ١٧١٥م وأطلقوا عليها اسم جزيرة فرنسا [إيل دي فرانس "Ile de France"] وقد اتخذت فرنسا من هذه الجزيرة قاعدة للاتصال بمن تستطيع الاتصال بهم من الحكام الوطنيين في بحار الشرق، وعلى هذا الأساس، تم أول اتصال بين حكام جزيرة فرنسا وبين الإمام أحمد بن سعيد حاكم عمان عام ١٧٤٩م فنشأت بذلك علاقات تجارية بين فرنسا وعمان[٢٣]، ولكن سرعان ما تصدعت العلاقات الفرنسية العمانية بسبب التصادم الإنجليزي الفرنسي خلال حرب الاستقلال الأمريكية والذي انعكس سلباً في المياه الإقليمية العمانية بعد أن أصبحت مسقط مسرحاً للصراع الدموي الدائر بين فرنسا وإنجلترا مما أثار استياء السلطان العماني بسبب انتهاك فرنسا للسيادة العمانية عند ضربها لإحدى السفن الإنجليزية في عرض المياه العمانية لكن هذا التصدع في العلاقات الفرنسية العمانية لم يستمر طويلاً بعد أن قدمت الحكومة الفرنسية اعتذارها للإمام أحمد بن سعيد. إذ تحسنت العلاقة بينهما كثيراً حتى

توجت بإبرام معاهدة للصداقة الفرنسية العمانية عام ١٨٤٤م[14]، كما زاد اهتمام فرنسا بعمان بعد ذلك فأقدمت على فتح قنصلية لها في مسقط عام ١٨٩٣م[15]، وأصدرت أمرها بتعيين أوتافي "Ottavi" كنائب قنصل ثم رفعته إلى درجة قنصل عام ١٩٠٠م ليقوم بتنظيم نشاطها التجاري والسياسي في عمان[16] كما جعلت إحدى شركاتها الملاحية تمر في عمان عبر العاصمة مسقط[17] .

ومن الجدير بالذكر أن فرنسا شاطرت بريطانيا في الاهتمام بعمان بسبب الموقع الاستراتيجي التي تتمتع به في منطقة الخليج العربي والهند إضافة للأسباب آنفة الذكر .

ثانياً : مبررات الصراع البريطاني الفرنسي حول تجارة الأسلحة في عمان واتساع نطاقه

تنافست بريطانيا وفرنسا كثيراً بشأن عمان مطلع القرن العشرين الأمر الذي أدى إلى تفجر العديد من الأزمات بينهما خلال هذه الحقبة الزمنية الوجيزة إذ نشأت الأزمة الأولى بينهما بسبب منح السلطان العماني فيصل بن تركي امتيازاً بإنشاء مستودع للفحم للأسطول للفرنسي في منطقة "بندر الجصة" التي تقع إلى الجنوب الشرقي من العاصمة مسقط بمسافة خمسة أميال وذلك في عام ١٩٠٠م[18] .

كما اندلعت أزمة ثانية بين الدولتين بسبب رفع السفن العمانية للأعلام الفرنسية بهدف التخلص من تفتيش السفن الإنجليزية لها وقد تصاعدت هذه الأزمة بين بريطانيا وفرنسا فتبادلتا الاحتجاجات ثم اضطرتا لعرض قضية رفع الأعلام على محكمة العدل الدولية في لاهاي للنظر فيها،

وقد أسفرت نتائج هيئة التحكيم عام ١٩٠٥م عن إدانة فرنسا[١٩] بالرغم من أن الدولتين قد سويت مشاكلهما قبل صدور قرار التحكيم وذلك بتوقيعهما للاتفاق الودي عام ١٩٠٤م[٢٠] .

إلا أن اندلاع أزمة ثالثة بينهما حال دون عودة العلاقات الفرنسية البريطانية لمجراها الطبيعي، إذ تفجر صراعهما بقوة - هذه المرة - بسبب تجارة الأسلحة في عمان وهو موضوع بحثنا هذا .

والواقع أن تجارة الأسلحة قد سببت الكثير من المتاعب للحكومة البريطانية مطلع القرن العشرين وبالذات السنوات التي سبقت الحرب العالمية الأولى كما كلفتها إجراءات منع هذه التجارة مبالغ طائلة حيث أنفقت نحو ربع مليون جنيه حتى عام ١٩١٠م[٢١]. ولقد كانت هذه التجارة منحصرة بأيدي الفرنسيين بصفة عامة وكانت مسقط مركزاً لها ويعود ذلك لكون بريطانيا لم تستطع الانفراد بالسيادة على عمان مثلما فعلت ذلك مع بقية إمارات الخليج العربي لأن مركز عمان من الوجهة الدولية محدد باتفاقيات ومعاهدات تجارية، عقدها سلاطين عمان مع عدة دول منها المعاهدة التجارية مع الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٣٣م، والمعاهدة المعقودة مع فرنسا عام ١٨٤٤م[٢٢]، والمعاهدة التجارية مع هولندا عام ١٨٧٧م[٢٣] فضلاً عن مركز عمان الدولي الذي حدد بمقتضى التصريح الإنجليزي الفرنسي المشترك لعام ١٨٦٢م والذي كان يبيح لفرنسا مركزاً مساوياً لمركز بريطانيا في عمان لذلك استغلت فرنسا هذه الصفة لتقلق مركز بريطانيا في عمان خاصة فيما يتعلق بتجارة السلاح. إذ قامت بتنظيم هذه التجارة مع السلطان العماني من خلال التاجر الفرنسي المعروف جوجيجر "Geogager" الذي وصل عمان في مارس من عام ١٨٩٩م .

وفي الواقع، يعد جوجيجر من أنشط تجار السلاح الفرنسيين وأكثرهم دهاء، فقد أعلن مراراً في عمان بأن بريطانيا لا تستطيع أن تتدخل في عملياته التجارية لأنه يأتي بالسلاح إلى عمان في سفن تحمل العلم الفرنسي. وتفيد المصادر التاريخية بأن عمليات جوجيجر التجارية قد ازدهرت كثيراً وجنى منها أرباحاً طائلة لدرجة أنه قدم للسلطان قروضاً عديدة[٢٤] .

لقد شكا الماركيز البريطاني لانسدون منذ أكتوبر عام ١٩٠٣م للحكومة الفرنسية من جوجيجر مطالباً بإبعاده عن عمان إلا أن محاولته باءت بالفشل بسبب علاقات جوجيجر الواسعة حيث ذكرت السلطات الفرنسية بأن شخصية جوجيجر مزعجة حقاً إلا أن طرده من عمان ليس بالأمر الهين، وهكذا، استمر جوجيجر يلعب دوراً أساسياً في ديمومة وازدهار تجارة السلاح في عمان .

لقد ذكر الوكيل البريطاني في مسقط في الثاني والعشرين من فبراير عام ١٩١٠م بأن تجارة جوجيجر بالسلاح ستمتد إلى قطر وأنه بالفعل أرسل سفينة مشحونة بالأسلحة إلى هناك ترفع العلم الفرنسي وأن جوجيجر يحاول أن يضع له وكلاء في الموانئ العربية[25] .

وعلى ضوء ذلك، أصبحت عمان مستودعاً كبيراً لتوزيع الأسلحة لا في شبه الجزيرة العربية فحسب بل في بلاد فارس وأفغانستان إذ أخذت تستورد الأسلحة من أوروبا من قبل الشركات الألمانية والإنجليزية والفرنسية ثم تصدرها نحو بلاد فارس وأفغانستان ومقاطعات آسيا مما خلق موجة من الاضطرابات على الحدود الشمالية الغربية للهند[26] . وطبقاً لنظام الامتيازات كانت هذه الشركات الأوروبية لا تخضع للرقابة فتستطيع بيع الأسلحة للمواطنين العرب دون أن تملك السلطات العمانية حق التدخل في ذلك[27].

والحقيقة أن تجارة السلاح لم تكن وليدة هذه الفترة (مطلع القرن العشرين) وإنما بدأت منذ عام ١٨٤٤م، لكن الحكومة البريطانية لم تنتبه إلى خطورة هذه التجارة إلا في أثناء الحرب الأفغانية الثالثة (١٨٧٩ - ١٨٨٠م) حيث أدركت أن وجود هذه الأسلحة تشجع على الثورة والتمرد على حدود الهند الغربية[28].

بعد ذلك، اتخذت الحكومة البريطانية قراراً يقضي بمنع تجارة الأسلحة مع فارس وقد صدر هذا القرار ضمن القانون الذي أعلنته بريطانيا عام ١٩٠٠م[29]، وبالرغم من أن القرار البريطاني يقصر المنع على فارس فقط إلا أنه كان يعني منطقة فارس وما جاورها أي أن عمان تقع ضمن المنطقة

الممنوعة وقد التزمت بريطانيا فعلاً بذلك إلا أن مجيء جوجيجر إلى عمان قبل سنة واحدة من صدور القرار البريطاني وتبنيه لتجارة السلاح في عمان بعد صدور القرار البريطاني أدى إلى إشعال فتيل الصراع بين الدولتين (فرنسا وبريطانيا) منذ عام ١٩٠٠م هذا من جهة .

ومن جهة أخرى فقد سبق أن وجه مؤتمر بروكسل من خلال مرسومه الصادر في عام ١٨٩٠م ضربة قوية لتجارة السلاح، إلا أن عمان لم تكن ضمن هذا المرسوم مما زاد من عمليات التهريب للأسلحة في المنطقة، لذلك فإن تجارة الأسلحة قد أصبحت من أهم بنود التجارة في عمان للفترة ما بين ١٨٩٠ وحتى ١٩١٤م ومن أكثر العمليات التجارية ربحاً حيث وصلت أرباحها لما بين ٢٠٪ و٣٠٪ كما بلغ عدد البنادق الداخلة إلى مسقط في عام ١٨٩٧م فقط أكثر من ٢٠.٠٠٠ بندقية[٣٠].

إن هذا الأمر قد زاد من خشية الحكومة البريطانية وتخوفها ولذلك سعت إلى عقد المعاهدات لمنع تصدير الأسلحة إلى كل من البحرين والكويت وإمارات الساحل المهادن عام ١٩٠٢م، إلا أنها أدركت في الوقت ذاته بأنه إذا لم يتم ضبط التجارة في المنبع وهو مسقط فإنه لا يمكن القضاء على هذه التجارة تماماً[٣١] .

وعلى ضوء ذلك، حصلت على موافقة شفوية من لدن السلطان العماني تقضي بمنع تصدير الأسلحة من عمان إلى الهند وفارس كما اتفقت معه على جعل استيراد الأسلحة عملاً غير شرعي يجب محاربته، ومع ذلك، فقد ظل استيراد الأسلحة إلى عمان وإعادة تصديرها نافذ المفعول بل تفاقمت هذه التجارة وأخذت تهرب الكميات الكبيرة من الأسلحة من عمان عن طريق القوافل إلى ساحل مكران ثم أفغانستان وكانت المصانع البلجيكية والألمانية والفرنسية وحتى الإنجليزية مستمرة في صنع وتصدير هذه الأسلحة نحو عمان[٣٢] .

وعلى الرغم من النجاح الذي حققته بريطانيا في إعاقة ممارسة هذه التجارة في جميع الموانئ بالخليج العربي إلا أنها لم تتمكن من تحقيق النجاح المطلوب في ميناء مسقط العماني بالرغم من عمليات الحصار البحري المتكررة له .

وفي عام ١٩٠٩م حاول مؤتمر بروكسل الدولي أن يقمع تجارة السلاح في عمان بالذات إلا أنه فشل بسبب معارضة الحكومة الفرنسية، والواقع أن الشركات الفرنسية كانت على الدوام وراء هذه المعارضة للحكومة الفرنسية وكانت تستحثها على الاستمرار في ذلك كي تبقى هي في ممارسة نشاطها التجاري للأسلحة إذ كانت معظم الأسلحة تصدر من ميناء جيبوتي الواقع على البحر الأحمر والذي كان تحت السيطرة الفرنسية .

عقب ذلك، اتصلت الحكومة البريطانية مباشرة بالحكومة الفرنسية وذلك في الثلاثين من شهر مارس عام ١٩١٠م فأرسلت لها مذكرة مطولة شرحت فيها وبالتفصيل تاريخ تجارة السلاح ونتائج مؤتمر بروكسل وجسامة الخسائر التي منيت بها بريطانيا جراء هذه التجارة كما شكت لديها في المذكرة من جوجيجر وأعماله بهذا الخصوص وطلبت منها التعاون الصادق النابع من علاقات الصداقة بين الدولتين كما أشارت لها بأن الحكومة البريطانية قد ساعدت على ضرب تجارة السلاح عند سواحل مراكش وطلبت منها في ختام المذكرة أن تولى هذا الأمر ما يستحقه من عناية فائقة لأنه يجر في ذيوله تبعات مثقلة لأمن بريطانيا في الهند وعلى حدودها[٣٣] .

كما اقترحت بريطانيا على فرنسا بعض النقاط التي وجدتها مناسبة لحسم المشكلة مبدئياً :

١ - منع السلطان العماني من الاتجار بالسلاح والذخيرة لمدة عام اعتباراً من الأول من يونيو عام ١٩١٠م .

٢ - إصدار الحكومة الفرنسية تعليماتها إلى قنصلها في عمان بعدم تسهيل الاتجار بالسلاح والذخيرة على سواحل عمان .

٣ - أن يمتد حق التفتيش الذي تقوم به سفن الأسطول البريطاني إلى السفن العمانية التي ترفع العلم الفرنسي وذلك لمدة عام اعتباراً من الأول من يونيو ١٩١٠م .

رفض الفرنسيون ذلك بشدة واعتبروه مجحفاً بحقوقهم في عمان، فتجاهل الإنجليز هذا الرفض بعد أن حقق الحصار المفروض على هذه التجارة بعض النجاح، ولكن على الرغم من هذا النجاح الذي حققه

الحصار البريطاني إلا أن الحكومة البريطانية اعترفت بأنه بات مكلفاً جداً فعادت من جديد تطرق أبواب باريس لوضع حد لتجارة الأسلحة في عمان[٢١]، وقد وضعت خطوطاً عامة يمكن على ضوئها التفاوض مع فرنسا، وأهم هذه الخطوط ما يلي :

١ - الاتفاق مع السلطان العماني على تحديد كميات السلاح التي تصل إلى عمان للاستخدام الحكومي .

٢ - أن تحمل سفن السلاح التي تتاجر به من عمان وأوروبا تصريحاً بعدم الاعتراض (No Objection) من ممثلي بريطانيا وفرنسا في عمان .

٣ - أن تكون الجمارك العمانية تحت إشراف الموظفين الإنجليز .

٤ - تعويض الرعايا الفرنسيين بشراء السلاح الذي بحوزتهم .

وبالفعل، عقدت المفاوضات بين بريطانيا وفرنسا بهذا الشأن في فبراير عام ١٩١١م غير أنها لم تسفر عن شيء بسبب ربط فرنسا لمسألة منع الاتجار بالسلاح في عمان بتنازل بريطانيا عن مناطق معينة لها في الهند .

وقد تجددت المحاولة البريطانية مرة أخرى لتبدأ مفاوضات ثانية في ٢٠/٧/١٩١٢م، حيث أكدت بريطانيا للفرنسيين بأن مسألة تجارة الأسلحة في عمان باتت أمراً غير محتمل وأن حسمه يتوقف على فرنسا وحدها، عند ذلك، دخل الطرفان في مفاوضات اتسمت بمناداة فرنسا بتبادل مناطق النفوذ بينهما مما أدى إلى إطالة المفاوضات دون أن يؤدي ذلك إلى نتيجة تذكر، الأمر الذي دفع بالحكومة البريطانية إلى تبني وجهة نظر وكيلها في عمان برسي كوكس "Percy Cox" والذي كان يرى تنظيم تجارة السلاح مع السلطان العماني مباشرة على اعتبار أن الأمر داخلي محض يدخل ضمن اختصاص السلطات العمانية دون غيرها من القوى الخارجية وبذلك تتمكن بريطانيا من أن تفوت الفرصة على فرنسا في ابتزازها[٢٢].

ثالثاً : كيفية إخماد الصراع وانتفائه

كان اقتراح الوكيل البريطاني في عمان (برسي كوكس) يهدف إلى ضرب تجارة السلاح في عمان محلياً بعد تعويض مناسب يقدم للسلطان العماني حيث ينبغي على السلطان أن يصدر تصاريح إدارية تعطي لكل سفينة عمانية لتقدمها لسفن الأسطول البريطاني وبخلافه تحجز السفينة حتى ولو كانت في المياه العمانية، ثم عدلت الحكومة البريطانية هذا المشروع باقتراح آخر يقضي بتشييد مستودع للأسلحة في عمان (Warehouse)[٢٦] إذ يجري تسجيل وترخيص جميع الأسلحة في هذا المستودع ولا يسمح بإعادة تصديرها إلا بإذن من السلطات المختصة، ولما كان هذا المستودع سيقلل من دخل السلطان العماني، لذا اقترحت الحكومة البريطانية تعويضه بمبلغ يتراوح بين ٤٠٠٠ - ٥٠٠٠ روبية سنوياً[٢٧] .

وبالفعل، قام بيرسي كوكس بمفاوضة السلطان العماني في هذا الأمر بعد أن منحته الحكومة البريطانية كامل الصلاحيات في التفاوض بما في ذلك تهديد السلطان في حالة عدم استجابته لاقتراح مستودع الأسلحة، إلا أن السلطان أبدى استعداده التام للتعاون مع الإنجليز في حسم مسألة تجارة الأسلحة وتمت موافقته على المقترح البريطاني في إنشاء مستودع الأسلحة شريطة أن يتم منحه التعويض المناسب جراء الخسارة الكبيرة التي تعرض لها اقتصاده خلال السنتين اللتين انقضتا من الحصار زائداً التعويض السنوي بعد إقامته للمستودع، كما اشترط على البريطانيين أن يضمنوا له موافقة الحكومة الفرنسية وعدم إثارتها المتاعب له . . .

كان رد المقيم البريطاني على الشروط التي تقدم بها السلطان العماني رداً إيجابياً حيث قرر منح السلطان ١٠٠,٠٠٠ روبية سنوياً نظير تشييد مستودع الأسلحة[٢٨]، أما رده بشأن موقف الحكومة الفرنسية من ذلك فقد أجاب المقيم البريطاني إن السلطان العماني بإمكانه إخبار السلطات الفرنسية بعزمه على تنظيم تجارة

السلاح في بلاده من خلال إنشاء مستودع للأسلحة وإنه يطلب تعاون فرنسا في هذا الجانب، والموضوع برمته لا يعدو أن يكون مجرد عملية تنظيم داخلية في إدارته وهذا من صميم حقوقه[٣٩] .

أصدر السلطان فيصل بن تركي أمره بتحريم تجارة السلاح في عمان في الثاني والعشرين من شهر مايو عام ١٩١٢م[٤٠] وذلك ضمن الإعلان الخاص بإنشاء مستودع الأسلحة واللوائح المنظمة له، كما أصدر في الوقت نفسه أمراً محلياً جاء فيه :

" بما أننا ندرك أن هنالك أسلحة وذخيرة كثيرة مودعة بشكل عفوي في المباني العامة المتفرقة على امتداد مسقط وبما أن هذا يعرض أمن المدينة للخطر من جراء ما ينشأ من أي هجوم تقوم به العصابات أو اللصوص أو من إشعال الحرائق، نحن السيد فيصل بن تركي سلطان عمان يدفعنا هذا الخطر الماثل لإجراء ينقذ عاصمتنا من الخطر المحدق بها، في هذا الشأن صممنا على إصلاح هذا الخلل بما تقتضيه المصلحة العامة وشئون الإدارة المحلية وعليه فقد قررنا إنشاء وتأسيس مكتب خاص بالجمارك يتبعه مستودع لتخزين السلاح والذخيرة بشكل يضمن تلافي الخطر وأن يبدأ العمل بنظام مستودع السلاح وبيت السلاح اعتباراً من ١٩١٢/٩/١م على النحو التالي :

١ - أن ترد كل الأسلحة والذخيرة إلى إدارة هذا المستودع الذي سنسمي له مشرفاً[٤١] .

٢ - على تجار السلاح أن يجلبوا ما تبقى لهم من سلاح وذخيرة إلى المستودع المذكور وذلك في الموعد المحدد (١٩١٢/٩/١م) وكل تاجر لا يتعاون معنا سيعرض نفسه للعقوبات الرادعة .

٣ - لا يجوز سحب أي أسلحة من المستودع إلا بعد أن تؤدي عنها رسوم للجمارك المستحقة .

٤ - كل الأسلحة التي تخرج من المستودع ستوضع لها علامة مميزة "[٤٢] . وبهذا فقد حقق إنشاء المستودع للأسلحة فائدة جمة إذ أدى ذلك إلى انكماش تجارة الأسلحة بنسبة كبيرة إلا أن فرنسا لم تستقبل تأسيس هذا المستودع بالرضى بل اعترض القنصل الفرنسي في مسقط على ذلك كما احتجت الحكومة الفرنسية عليه

بتاريخ ١٩١٢/٩/١٨م، وقام السفير البريطاني في باريس (فرنسيس بيرتي Bertie) بمناقشة الموضوع مع (بوانكاريه) وزير الخارجية الفرنسية وقد جرت المناقشات بينهما بهدوء تام بفضل قدرة الحكومة البريطانية على إقناع فرنسا بخطورة تجارة الأسلحة على مستعمراتها في كل من آسيا وأفريقيا[٢] .

وفي ١٩١٣/٧/٢٤م بعث السفير الفرنسي في لندن (كامبون) إلى وزير خارجيته يخبره بالمحادثات التي جرت بينه وبين وزير الخارجية البريطانية الذي أعلمه بإمكانية تعويض فرنسا نظير إلغاء تجارة السلاح في عمان ثم أعقب ذلك مفاوضات مطولة بين وزير الخارجية الفرنسي (بوانكاريه) والسفير البريطاني في باريس (بيرتي) الذي أصر على ضرورة إخضاع مشكلة تجارة السلاح إلى التحكيم إلا أن الوزير الفرنسي عارض هذه الفكرة معللاً ذلك بأنه لا يجوز عرض قضية على التحكيم وهي في الواقع تتعلق بالمعاهدة المعقودة بين عمان وفرنسا .

غير أن فرنسا لم تستمر في موقفها هذا طويلاً حيث تراجعت عنه بعد ذلك وأعلنت موافقتها على قبول مبدأ التحكيم في الثاني والعشرين من شهر أكتوبر ١٩١٣م فقدم وزير خارجيتها (بوانكاريه) إلى السفير البريطاني في باريس (بيرتي) النقاط التي بموجبها يجري التحكيم ثم طلب من سفيره بلندن إبلاغ الحكومة البريطانية بأنه حتى يصدر قرار التحكيم ينبغي رد جميع الأسلحة التي تم الاستيلاء عليها وبذلك يكون هذا الأمر شرطاً أساسياً لاستمرار إجراءات التحكيم إلا أن بريطانيا رفضت ذلك بسبب تمييزها بين أمري الحجز والمصادرة وذكرت بأن الإجراءات المتخذة حتى الآن تتعلق بالحجز ولم تتم مصادرة أي شيء .

جرى أخذ ورد بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية بشأن تجارة السلاح في عمان كما جرت دراسة قانونية بشأنه قام بها الجانبان وقد توصلا فيها إلى التمييز بين الأسلحة التي صودرت قبل إعلان المرسوم الخاص بإنشاء مستودع الأسلحة عام ١٩١٢م وبين الأسلحة التي صودرت قبل المرسوم وإرجاعها لأصحابها .

أما الأسلحة التي وصلت عمان بعد صدور المرسوم فإنها توضع تحت حماية

القنصل الفرنسي في عمان على ألا يتصرف بها .

كما تقدمت بريطانيا بمقترحات عدة كحلول آنيّة بقصد التسوية بينها وبين فرنسا بصدد هذا الموضوع، منها اعتراف فرنسا بشرعية الأمر الذي أصدره السلطان العماني بشأن مستودع الأسلحة مقابل تنازل بريطانيا عن حقوقها في المساواة التامة بالنسبة للبضائع الإنجليزية والفرنسية المارة في موانئ الجزائر ومراكش طبقاً للمادة الرابعة من الاتفاق الودي لعام ١٩٠٤م، ولكن فرنسا رفضت ذلك مدعية بأن هذه المقترحات لا تخدم سوى المصالح البريطانية، فضلاً عن الخسارة التي ستلحق بفرنسا من جراء منع تجارة الأسلحة في عمان، وعليه، ارتأت فرنسا العودة إلى فكرة التحكيم مع منحها التعويض المناسب(١) .

يبدو من خلال ما تقدم وعلى ضوء الرسائل المتبادلة بين الحكومتين الفرنسية والبريطانية خلال عامي ١٩١٢، ١٩١٣م بأن فرنسا قد تذرعت تارة بمعاهدة ١٨٤٤م مع عمان وتارة بالتصريح البريطاني الفرنسي المشترك لعام ١٨٦٢م لكي ترفض فكرة التحكيم، لكنها أدركت في النهاية بأن مساومتها في هذه القضية محكوم عليها بالفشل بسبب عدم امتلاكها القوة الفاعلة في منطقة الخليج العربي، وبناءً على ذلك سارعت إلى القبول بمبدأ التحكيم مع التعويض .

وفي الواقع، فإن تنظيم تجارة السلاح في عمان من خلال المقترح البريطاني وهو (إنشاء مستودع للأسلحة) أدى أول الأمر كما لاحظنا أن احتدام الصراع الدائر بين فرنسا وبريطانيا في الأروقة الدبلوماسية ولكنه في النهاية أفضى إلى إخماد هذا الصراع تدريجاً بالرغم من أن مشكلة تجارة السلاح في عمان لم يتقرر حلها بصفة نهائية .

لكن اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م أعطى لبريطانيا الفرصة لتقوية نفوذها في منطقة الخليج العربي بشكل عام وأن تتخلص من جميع منافسيها بما فيهم فرنسا(٢) التي أصبحت صديقة لها إذ وقفت إلى جانبها خلال الحرب العالمية الأولى كما انتهزت بريطانيا فرصة قيام الحرب العالمية الأولى لتكثف من جهودها في محاربة تجارة السلاح في عمان، وقد جاء في تقرير لجنة الدفاع عن

الإمبراطورية البريطانية في ١٩١٧/٣/١٠م ما يلي :

"إن اللجنة قد بحثت موضوع حظر تجارة السلاح في عمان وأوصت بتكثيف العمل في محاربة الاتجار فيه حتى لا يصل إلى العناصر الوطنية في كل من آسيا وأفريقيا"[٦]، وبالفعل، استطاعت بريطانيا أن تستغل وضعها الجديد خلال الحرب العالمية الأولى لتحد من تجارة السلاح، وكانت السبب الرئيسي في الصراع الذي نشب بين بريطانيا وفرنسا إلى درجة الاضمحلال، وقد راحت بريطانيا بعيداً في هذا الاتجاه فطلبت من فرنسا العمل على إزالة القيود التي فرضها التصريح البريطاني الفرنسي المشترك لعام ١٨٦٢م على حرية العمل للإنجليز في عمان، وقد استجابت فرنسا للطلب البريطاني وتم إزالة كافة القيود الفرنسية التي كانت تعوق بريطانيا من التدخل في عمان والتي كانت قائمة بمقتضى التصريح المشترك[٧]، وقد ارتبط تخلي فرنسا عن الكثير من امتيازاتها في عمان بالتسويات الاستعمارية التي تضمنتها المباحثات بين الدولتين . الأمر الذي أدى إلى انتهاء الصراع الفرنسي البريطاني حول تجارة السلاح في عمان بعد أن اضمحلت التجارة ذاتها من جهة وتوقف الصراع البريطاني الفرنسي حول عمان مع اندلاع الحرب العالمية الأولى من الجهة الأخرى" .

من المفيد الإشارة في نهاية البحث بأن فرنسا في أعقاب الحرب العالمية الأولى قد وجدت من الحكمة أن تغلق قنصليتها في عمان فكلفت فادالا (Vadala) للقيام بهذه المهمة، وقد تم بالفعل إغلاق القنصلية الفرنسية في مسقط عام ١٩٢٠م كتعبير عن اختفاء آخر مظهر من مظاهر النفوذ الفرنسي في عمان[٨] .

الخلاصة والاستنتاجات

مما تقدم توصلنا إلى ما يلي :

١ - ازدهرت تجارة السلاح في عمان نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين وقد ساهمت عوامل داخلية وخارجية على ازدهارها هي :

أ - العوامل الداخلية :

الأرباح الطائلة التي حققتها تجارة السلاح لعمان (دولة وأفراداً) .

ب - العوامل الخارجية :

- عدم شمول عمان بمؤتمر بروكسل الدولي عام ١٨٩٦ الخاص بتنظيم تجارة السلاح الدولية .
- تشجيع فرنسا لتجارة السلاح في عمان مدفوعة لذلك بدوافع اقتصادية وهي الأرباح التي تجنيها من هذه التجارة ودوافع سياسية وهي إقلاق مركز بريطانيا في عمان .

٢ - كانت بريطانيا الجهة الوحيدة التي تقف ضد ازدهار تجارة السلاح في عمان بسبب تخوفها من وصول الأسلحة إلى الوطنيين في مناطق نفوذها في كل من آسيا وأفريقيا .

٣ - بسبب التأييد الفرنسي لتجارة الأسلحة في عمان يقابله الرفض البريطاني لها الأمر الذي حتم نشوب الصراع بين الدولتين مطلع القرن العشرين .

٤ - العوامل التي أدت إلى إخماد الصراع البريطاني الفرنسي حول تجارة السلاح في عمان وانتفائه هي :

أ - المقترح البريطاني بتأسيس (مستودع السلاح) في عمان لتنظيم تجارة السلاح فيها .

ب - اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م .

د. فاضل محمد الحسيني
جامعة ناصر / ليبيا

الهوامش

١ - الداود، محمود علي، أحاديث عن الخليج العربي، بغداد، الطبعة الثانية، ص ١٢ .

٢ - غنام، علي، الخليج العربي، بغداد ١٩٧٤، ص ١٠ .

٣ - العابد، صالح محمد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي، ١٧٩٨ - ١٨٨١م، بغداد ١٩٧٩، ص ٥٩ - ٦٠ .

٤ - السيار، عائشة علي، دولة اليعاربة في عمان وشرق أفريقيا، تقديم د. صلاح العقاد، بيروت ١٩٧٥م، ص ١٦٦ .

٥ - Skeet, Ian, Muscat and Oman, The End of an Era, London 1974, p. 12.

٦ - Bathurst, The Yarabi Dynasty in Oman, Oxford 1967, p. 104.

٧ - Parsons, Abraham, Travel in Asia Africa, London 1808, p. 208.

٨ - Aitchison, A collection of treaties, Engagement and sanads relating to India and Neighboring countries, Vol. XI, Delhi 1933, p. 284.

٩ - Arabian Boundaries, Primary Documents, 1853 – 1957, Editors: Richard Schofield and Gerald Blake, Vol. 9, Sultanate of Muscat and Oman, London 1988, p. 54.

١٠ - إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، السلام البريطاني في الخليج العربي، ١٨٩٩ - ١٩٤٧، الطبعة الأولى، الرياض ١٩٨١، ص ٣٢٩ .

١١ - الرميحي، سيف الوادي، التطور الاقتصادي والسياسي لأقطار الخليج العربي، تعريف د. عبد السلام ياسين الإدريسي، البصرة ١٩٨٠، ص ٧٦ .

١٢ - لاندن، روبرت جبران، عمان منذ ١٨٥٦ مسيراً ومصيراً، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الثالثة، عمان ١٩٨٣، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

١٣ - مايلز، الخليج بلدانه وقبائله، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الرابعة، عمان ١٩٩٢، ص ٢٥٣ .

١٤ - محمد، جاد طـه، تجارة الأسلحة في مسقط قديماً، مجلة الدارة، العدد الثاني، السنة السابعة، الرياض ١٩٨١، ص ١٨٤ .

١٥ - Hamilton, Americans and Oil in the Middle East, London, 1926, p. 92.

١٦ - المشهداني، خليل إبراهيم صالح، التطورات السياسية في عمان وعلاقاتها الخارجية، رسالة ماجستير غير منشورة، بغداد ١٩٨٦، ص ٣٤ .

١٧ - Zwemmer, Rev-S-M, Arabia The Cradle of Islam, London, 1986, p. 203 – 205.

١٨ - لاندن، المصدر السابق، ص ٢٩٣ .

١٩ - بيربي، جان جاك، الخليج العربي، تعريب نجدة هاجر وسعيد العز، بيروت، بدون تاريخ، ص ١٩٩ .

٢٠ - بيشون، جان، بواعث الحرب العالمية الأولى في الشرق الأدنى، نقلة للعربية محمد عزة دروزة، بدون تاريخ، ص ٧٨ .

٢١ - محمد جاد طه، المرجع السابق، ص ١٩٠ .

٢٢ - F. O. 371, Position in Regard to Muscat Traties with France and United States, E 45/5/4/91, Muscat, 15998.

٢٣ - F. O. 371, Accession of Sultan of Muscat, Question of Notifying Netherlands. Govts, E6536/4791.

٢٤ - إبراهيم، السلام البريطاني . . .، المرجع السابق، ص ١٢٤ .

٢٥ - المرجع نفسه، ص ١٢٥ .

٢٦ - قاسم، جمال زكريا، الخليج العربي دراسة لتاريخ الإمارات العربية (١٨٤٠ - ١٩١٤)، القاهرة ١٩٦٦، ص ٢٨٠ - ٢٨١ .

٢٧ - العقاد، صلاح، التيارات السياسية في الخليج العربي، القاهرة، ١٩٦٥، ص ٢٢١ .

٢٨ - بيشون، المرجع السابق، ص ٧٧ .

٢٩ - قاسم، المرجع السابق، ص ٣٨١ .

٣٠ - Thomas, Bertram, Arab Rule Under The Albu Sa'id Dynasty of Oman, 1741 – 1937, London, 1938, p. 20 .

٣١ - محمد، جاد طه، المرجع السابق، ص ١٩١ .

٣٢ - قاسم، المرجع السابق، ص ٣٨٢ .

٣٣ - I.O. L/ps/1B/B – 175, Arms Traffic in Persian Gulf, 30 Mars, 1910 .

٣٤ - I. O. L.P.S/1B/B – 196, Arms Traffic in Persian Gulf, 20 Feb, 1913 .

٣٥ - إبراهيم، السلام البريطاني . . . . .، المرجع السابق، ص ١٢٨ – ١٢٩ .

٣٦ - Arabian Boundaries Primary Documents, 1853 – 1975, Vol. 19, p. 45 .

٣٧ - إبراهيم، المرجع السابق، ص ٩٧ .

٣٨ - F. O. 371 Loss Inflicted on Sultan by arms traffic blockade, 692.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المنحة استمرت تدفع بعد وفاة السلطان فيصل إلى ابنه السلطان تيمور شريطة السير على نهج والده فيما يتعلق بمنع تجارة الأسلحة في عمان .

٣٩ - إبراهيم، عبد العزيز عبد الغني، سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي، ١٨٥٨ – ١٩١٤، الطبعة الأولى، الرياض، ١٩٨٢، ص ٩٨ .

٤٠ - I. O. L.P.S/18/B – Arms Traffic in Persian Gulf, 22 – May, 1912.

٤١ - [من المفيد الإشارة إلى أن المقيم البريطاني في عمان (بيرسي كوكس) قد اقترح على السلطان فيصل بن تركي بأن يكون المشرف على مستودع الأسلحة بريطانياً غير أن السلطان رفض ذلك وعين (السيد قاسم) وهو هندي الأصل مشرفاً عليه] .

إبراهيم، سياسة الأمن، المرجع السابق، ص ١٠٢ .

٤٢ - ويلسون، أرنولد، تاريخ الخليج، ترجمة محمد أمين عبد الله، الطبعة الثالثة، عمان ١٩٨٨، ص ٢٠١ .

٤٣ - قاسم، المرجع السابق، ص ٣٨٣ .

٤٤ - المرجع نفسه، ص ٣٢٤ – ٣٢٥ .

٤٥ – العقاد، المرجع نفسه، ص ٢٢٢ .

٤٦ – I. O. L.P.S/18 – D – 224, Report (sub-committee), 10 Mars, 1917.

٤٧ – F. O. 371, 4323, 50, an assurance from French Govt., that they will remove all restrictions on British Freedom of action in Muscat.

٤٨ – بيربي، المرجع السابق، ص ١٩٨ .

ملاحظة :

الرموز التي وردت في الهوامش تعني ما يلي :

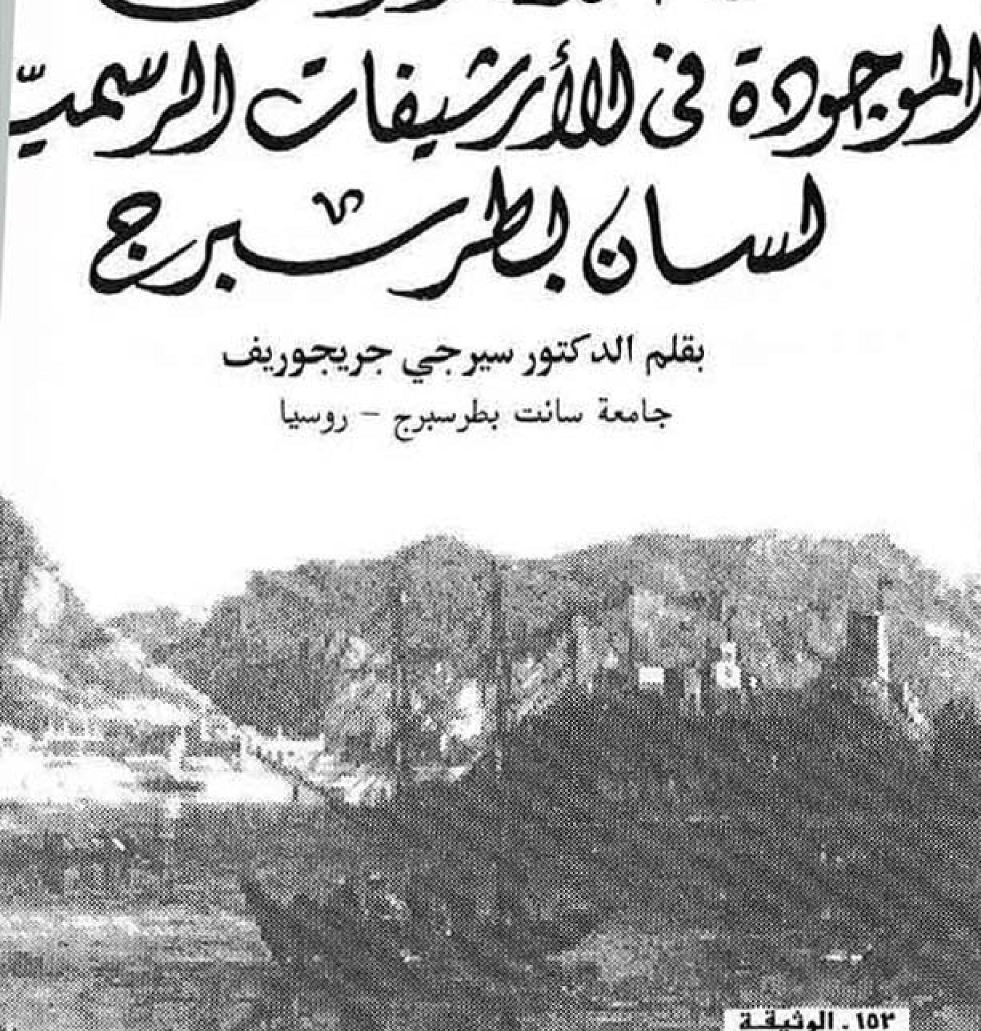
وثائق وزارة الخارجية البريطانية = 1 – F. O. R. = Foreign Office Records.

وثائق وزارة الهند البريطانية = 2 – I. O. R. = India Office Records.

عمان في القرن التاسع عش

من خلال الوثائق الموجودة في الأرشيفات الرسمية لسان بطرسبرج

بقلم الدكتور سيرجي جريجوريف
جامعة سانت بطرسبرج - روسيا



ـر وبداية القرن العشرين

إن سلطنة عمان دولة عربية تمتد على الساحل الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية ويقع خليج عمان في شمالها، وبحيرة العرب في شرقها وجنوبها، وجمهورية اليمن في الجنوب الغربي، والربع الخالي للجزيرة العربية في غربها، والإمارات العربية المتحدة في الشمال الغربي . وتشمل أيضا قمة رأس مسندم الاستراتيجية وهي نتوء في الخليج العربي وخليج عمان . وشهدت هذه الدولة تقدما اقتصاديا وسياسيا وثقافيا هائلا ونجاحا باهرا منذ تولى جلالة السلطان قابوس الحكم في ١٩٧٠م .

لعبت سلطنة عمان، نظرا لموقعها في منطقة هامة من العالم أي في مدخل الخليج العربي، دورا مهما منذ قرون عديدة ولا تزال تلعب دورا هاما في الحياة السياسية والاقتصادية والتجارية في شمال وغرب



المحيط الهندي كهمـزة وصل بين الساحل الشرقي لأفريقيا وشبه الجزيرة العربية والسواحل الإيرانية في الخليج العربي وبلوشستان والجزء الغربي للهند . وكانت عمان مهداً للحضارات العريقة منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد . واشتهرت ولاية ظفار الغربية ببخورها ولعبت دوراً هاماً في الحياة الدينية والاجتماعية لهذا الشعب العريق منذ قرون عديدة . وكان الشعب العماني من أوائل الشعوب العربية في اعتناق الإسلام ديناً في عام ٦٣٠م في حياة الرسول ﷺ .

وكان الأسطول التجاري والبحري العماني أكثر الأساطيل قوة وعدداً لقرون عديدة في غرب المحيط الهندي .

أبحرت السفن العمانية إلى الموانئ النائية في الصين وجنوب أفريقيا . وكانت عمان من أكبر الدول في الجزء الشرقي من العالم الإسلامي وشملت أقاليم الجزء الشرقي للجزيرة العربية وبعض الجزر الواقعة في الخليج العربي، وأجزاء صغيرة من جنوبي غرب الساحل الإيراني، وساحل مكران من بلوشستان وسواحل وجزر شرق أفريقيا التي تملكها حالياً كل من الصومال وكينيا وتنزانيا وموزمبيق . وهكذا سيطرت عمان على سواحل الجزء الغربي للمحيط الهندي .

وكان البرتغاليون من بين السياح والملاحين الأوروبيين الذين جاءوا إلى الهند والخليج العربي أولاً بأول عن طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر . وإن استيلاء الأسطول البرتغالي على جزيرة هرمز في عام ١٥١٥م يرمز إلى تأسيس أول دولة أوروبية في المنطقة التي كانت عمان تلعب دوراً ريادياً فيها عموماً .

وكانت البرتغال تعارض عمان في الخليج العربي ولحد ما في غرب المحيط الهندي واستمرت الأوضاع على هذا المنوال لحوالي قرن حتى طردهم العمانيون من مسقط في ١٦٥٠م ومن جزر زنجبار وبمبا الأفريقية في ١٦٥٢م .

حاولت كل من هولندا وإيران على التوالي توطيد موقفها في الخليج وفي عمان نفسها . ولكن جلالة الإمام أحمد بن سعيد، مؤسس الأسرة الحاكمة الحالية، طرد الإيرانيين من أرض عمان في ١٧٤١م . وأقيمت علاقات ودية جداً مع بريطانيا في أواخر القرن التاسع عشر . وقد لعبت هذه الدولة العربية من ذلك

الوقت دوراً هاماً في سياسة الإمبراطورية البريطانية في الخليج العربي وفي الجزء الغربي للمحيط الهندي . وكانت عمان أول دولة عربية تقيم علاقات دبلوماسية مع الولايات المتحدة الأمريكية .

ورغم أن دولة روسيا تقع على بعد كبير من الخليج العربي وسلطنة عمان إلا أن الروس حاولوا من زمن بعيد زيارتها . وكانت قصص عن هذا البلد الثري الواقع في نقطة استراتيجية بالنسبة إلى المحيط الهندي على المدخل للخليج العربي شائعة بين عامة الناس في روسيا . وكان "إفانسي نيكيتن" أول روسي يزور عمان وهو تاجر من مدينة "طفير" الروسية الواقعة بالقرب من موسكو . وفي طريق عودته من الهند قام إفانسي نيكيتن بزيارة مسقط في مايو ١٤٧١م كما قضى بعض الوقت في البحرين وبعض الموانئ للإمارات الحالية . وكتب كتاباً بعنوان "السفر وراء ثلاثة بحار" وفيه معلومات قيمة عن المناخ والاقتصاد والوضع السياسي وأوضاع الحياة التقليدية وعادات الناس الذين سكنوا البلاد التي زارها في طريقه إلى الهند وأثناء عودته منها بما فيها عمان[1] . وأعجب التاجر الروسي بالطقس الحار والماء الدافئ الذي صادفه في منطقة مسقط في شهر مايو نظراً لأن الطقس في روسيا في ذلك الشهر كان بارداً على العموم .

وفي عام ١٦٩٥م سافر تاجر روسي باسم "سمن مالنكي" إلى الهند عن طريق البحر . (كنيته باللغة الروسية تعني "صغير") وعند عودته منها تعرض للنهب من القراصنة من السواحل العمانية الذين جردوه من كافة السلع التي كانت لديه من الشاي والفول والزنجبيل والسكر .. الخ . وكان ذلك بمثابة كارثة له لأنه تطلع إلى بيع سلعه التي جاء بها من الهند في الأسواق الروسية بأرباح مرتفعة . لأنها كانت نادرة وغالية جداً في روسيا . ولم تنتج روسيا الزنجبيل والتوابل وقصب السكر والشاي محلياً واستوردتها من البلدان الحارة في أفريقيا وآسيا .

بذلت الإمبراطورية الروسية اهتماماً بالغاً لإقامة علاقات متعددة الجوانب مع البلدان الشرقية كالإمبراطورية العثمانية وإيران ودول آسيا الوسطى في القرن الثامن عشر في عهد الإمبراطور بطرس الأول (يشار إليه في روسيا

كبطرس الأعظم) الذي كان مصلحاً عظيماً ورجل دولة وجنديا ممتازاً .

وكان بطرس العظيم يحلم باستكشاف طريق بري إلى الهند من روسيا عبر أقاليم كل من خيفا وخناتيه وإمارة بخارا وأفغانستان . وكان على علم أيضاً بالطريق البحري إلى الهند وقد قيل له أن جميع المراكب والسفن المتجهة للهند زارت ميناء مسقط على العموم . وأدرك هذا الحاكم الروسي أن كلاً من فرنسا وبريطانيا حاولت أن تسيطر على الطريق البحري من أوروبا إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح نظراً لتواجد توابعها ومستعمراتها حوله . ولم تكن القوات البحرية الروسية أو أسطولها التجاري قوياً آنئذ . فما كان بالإمكان لها أن تؤثر على، أو تكتشف البلدان النائية في المحيط الهندي والخليج العربي بما فيها عمان .

ولاحقاً في بداية القرن التاسع عشر كانت الإمبراطورية الروسية حليفة فرنسا النابوليونية لمدة قصيرة . قد خططت لتشارك فرنسا في حملة عسكرية ضد الممتلكات الإنجليزية في الهند . وحسب الخطة التي وضعتها القيادة العسكرية الروسية لهذا الغرض كان على الجنود الروس أن يتقدموا عن طريق إيران حيث ينضم إليهم الجيش الفرنسي . كما تقرر إرسال الأسطول الفرنسي والأسطول الروسي إلى الخليج العربي وخليج عمان لتأمين الجانب الجنوبي لقوات الغزو ضد الأسطول البريطاني والمارينز الملكيين . وفي هذه الحالة كانت السفن الحربية البريطانية تجوب المياه الإقليمية لسلطنة عمان .

لكن الأوضاع السياسية في أوروبا تغيرت بسرعة . وهاجمت فرنسا روسيا في ١٨١٢م وتحالفت مع بريطانيا العظمى . فأصبحت حملة فرنسا ضد الممتلكات البريطانية في الهند أمراً مستحيلاً . وأدى فوز الجيش الروسي ضد نابليون في العمليات الروسية ومن ثم سلسلة الهزائم التي تكبدتها فرنسا في أوروبا إلى تنازل نابوليون ونفيه وإضعاف مكانة فرنسا في أوروبا والعالم بأجمعه .

وأصبحت الإمبراطورية الروسية لمدة ما أقوى دولة أوروبية . وفي العشرينات من القرن التاسع عشر، كانت روسيا أقوى دولة في أوروبا ومكث أحد الفرنسيين في روسيا عقب الحرب مع نابليون ووجه نداء إلى الإمبراطور الروسي اليكساندر الأول ليفرض سلطة روسيا

على ميناء ومدينة مسقط . وتعرف هذه الوثيقة باسم: [**اقتراح المستر "سيرفبر" للاستيلاء على مدينة مسقط في الجزيرة العربية من أجل ترويج تجارة رابحة**] في مقتنيات الأرشيفات الرسمية لسان بطرسبرج - العاصمة السابقة للإمبراطورية الروسية .

إن الأرشيفات التاريخية المركزية الروسية الرسمية للاتحاد الروسي في مقرها في مدينة سان بطرسبرج تعتبر من أكبر الأرشيفات التاريخية في روسيا . وتم تأسيسها في عام ١٩٢٢م . وفيها أكثر من ٦ ملايين وثيقة مكونة من صور الوثائق والمخطوطات والرسائل الشخصية والرسمية والمراسيم الملكية والقرارات الصادرة والمعدة من أو من أجل أو من ممتلكات رجال الدولة والمؤسسات والمنظمات التابعة للإمبراطورية الروسية . وتعطي هذه الوثائق وصفاً مفصلاً وعريضاً لكافة جوانب الحياة للمجتمع الروسي من بداية القرن الثامن عشر حتى العشرينات من القرن العشرين . وهناك وثائق كثيرة في هذه الأرشيفات الرسمية تتعلق بالسياسة الخارجية للإمبراطورية الروسية وعلاقات روسيا مع بلدان الشرق الأوسط . ويتعلق بعضها بعمان .

وتم تصنيف هذه الوثائق تحت أرقام خاصة بالدوائر المختلفة في الأرشيفات التاريخية الروسية المركزية الرسمية للاتحاد الروسي حيث تحتفظ بها .

[ن ٨٦] وثائق دائرة الشحن البحرية التجارية لوزارة التجارة والصناعة للإمبراطورية الروسية .

[ن ٩٥] وثائق وزارة المال للإمبراطورية الروسية .

[ن ٨٢١] وثائق دائرة الأديان الخارجية في وزارة الداخلية للإمبراطورية الروسية .

[ن ١٢٧٦] وثائق مكتب مجلس وزراء الإمبراطورية الروسية ووزارة التجارة والصناعة .

[ن ١٤٠٩] وثائق وزارة الخارجية للإمبراطورية الروسية .

وإن أرقام الدوائر المذكورة مقسمة إلى فئات مختلفة وعدة فروع للفئات . ويحتوي كل ملف على آلاف الصفحات مصنفة على أساس تاريخ الصدور والموضوع والموقف تجاه المؤسسات الرسمية والشخصية والأشخاص . .الخ . ويوجد في أرشيفات سان بطرسبرج

الرسمية المركزية عدد كبير من الوثائق الأولية عن عمان لفترة من القرن التاسع عشر إلى بداية القرن العشرين .

إن الوثيقة المعنونة [**اقتراح المستر سيرفبر للاستيلاء على مدينة مسقط في الجزيرة العربية من أجل ترويج التجارة**] مكتوبة باللغة الفرنسية . وتتكون من ١٢ صفحة وخريطة مفصلة لشبه الجزيرة العربية نرى فيها المنطقة الشرقية للجزيرة العربية بما فيها الأراضي الحالية لسلطنة عمان والإمارات العربية المتحدة . والوثيقة مقسمة إلى ٣ فصول وكل فصل مكون من حوالي ٤ صفحات .

والفصل الأول يصف أهمية عمان وخاصة ميناء مسقط في الخليج العربي والشرق الأوسط بأكمله من المنظور الاستراتيجي والاقتصادي والتجاري .

ويعالج الفصل الثاني شرحاً للمنافع التي تعود على الإمبراطور الروسي والإمبراطورية الروسية ككل في حالة فرضها سيطرتها على عمان وميناء مسقط . ويجري الفصل حساباً لعدد السفن ووسائل النقل المطلوب إرسالها إلى مضيق هرمز من سان بطرسبرج (روسيا) لاحتلال ميناء مسقط .

ويتناول الفصل الثالث لهذه الوثيقة وصفاً لدولة عمان وهو هام جداً . ويحتوي على معلومات دقيقة ونادرة عن الطقس والزراعة والتركيب الجنسي والعقائدي لسكان عمان وأوضاع الحياة الشخصية في دولة عمان .

لا نعرف كثيراً عن مؤلف هذا التقرير . سوى أن كنيته "سيرفبر" وسكن سان بطرسبرج (عاصمة الإمبراطورية الروسية) في عشرينات القرن التاسع عشر . وحسب قول سيرفبر فإنه كان يعرف حاكم عمان شخصياً غير أنه لم يذكر اسمه . (كان حاكم عمان آنئذ صاحب الجلالة سيد سعيد بن سلطان الذي حكم لأكثر من نصف قرن من ١٨٠٦ إلى ١٨٥٦م) . وكان سيرفبر على إلمام باللغة العربية .

وقد جاء في تقريره بأنه زار مدينة مسقط متنكراً كمسلم . ونظراً لأنه رفع تقريره إلى الإمبراطور الروسي اليكساندر الأول في عام ١٨٢٤م وقال فيه بأنه أمضى بعض الوقت في روسيا فيما قبل وذكر فيه بأنه قد مر بعض الوقت عليه في روسيا قبل تقديم تقريره وهذا يعني بأنه قد زار عمان(٢) في بداية العشرينات من القرن التاسع عشر، ربما بعد قليل

من زيارة السائح الإيطالي المستكشف "في - ماوريزي" الذي زار مسقط في ١٨٠٩م متنكراً كمسلم . وأسمى نفسه الشيخ منصور ونشر تقريراً لاحقا عن أسفاره في عمان[٣] .ومن هذه الناحية كان سيرفبر هو الشخص الثالث من الأوروبيين الذي يزور عمان بعد نيبور (الذي زار عمان في ١٧٦٥م واكتشفها لحد ما) . وفي نهاية التقرير الموجه إلى الإمبراطور الروسي التمس سيرفبر من جلالته، مقابل جهده في نقل المعلومات عن ميناء مسقط وإقامة علاقات روسية عمانية مباشرة، منحه رتبة عقيد فخري في كتيبة "حوصار" للحرس الإمبريالي الروسي (دون التزامه بتأدية واجبات العقيد) وكذلك منحه وساماً من أوسمة الإمبريالية . ومنحه أيضاً حق شراء وامتلاك قسائم الأرض في روسيا[٤] .

إن كاتب التقرير (اقتراح المستر سيرفبر . . الخ) قدم حججاً لاحتلال مدينة مسقط في الجزيرة العربية من قبل البحرية الروسية وكتائب الجيش الروسي في الفصل الأول للوثيقة . وأورد الدلائل الآتية مؤيداً لاقتراحه :

١ - يقع ميناء مسقط في شرق الجزيرة العربية وهي ليست بعيدة عن ملتقى الخليج العربي بخليج عمان .

٢ - يلعب الخليج العربي نفس الدور في الشرق الأوسط الذي يلعبه البحر المتوسط تجاه أوروبا . وتأتي هنا السفن التجارية من جميع أنحاء العالم محملة بالسلع المتنوعة أي من جنوب الإمبراطورية التركية وجنوب إيران وأقاليم الجزيرة العربية .

٣ - تزور مئات السفن التجارية المختلفة من كل من آسيا وأفريقيا وأوروبا موانئ البصرة والمحمرة والموانئ الإيرانية كبندر عباس وشاه بندر .

٤ - تقع جزيرة البحرين الغنية باللؤلؤ في الخليج العربي .

٥ - إن كافة السفن الحربية والتجارية الداخلة والمغادرة للخليج العربي، تمر بمسقط وبجانب الساحل العماني .

٦ - الدولة الأوروبية التي تسيطر على سواحل عمان بجانب الخليج العربي وخليج هرمز والجزر الواقعة على مضيق هرمز وميناء مسقط نفسها، هي التي تسيطر على

الوضع السياسي والاقتصادي في هذين الخليجين الهامين في الجزء الغربي للمحيط الهندي[٥] .

أورد سيفبر في تقريره المكاسب السياسية والاقتصادية التي تعود على روسيا إذا احتلت ميناء مسقط . وهي كالآتي :

١ – عقب احتلال روسيا لمسقط إذا نشبت حرب بينها وبين تركيا أو إيران فيمكن لروسيا أن تمارس الضغط أو الابتزاز عليهما في الخليج العربي .

٢ – تزداد الإمبراطورية الروسية قوة في أوروبا خاصة في مجال علاقاتها واتصالاتها مع كل من بريطانيا وفرنسا .

٣ – إن الاستيلاء على مسقط يعطي لروسيا نفوذاً على أقاليم الجزيرة العربية ككل .

٤ – تكسب الإمبراطورية الروسية إمكانات توسعية في الجزء الغربي للهند والولايات الجنوبية في إيران .

٥ – المناجم النحاسية والترسيبات المعدنية الطبيعية الأخرى لخامات المعادن مثل الذهب والرصاص التي توجد في عمان بكثرة سترفع مدخول الإمبراطورية الروسية إذا تولت استغلالها الجيد . وفهرس سيفبر في تقريره الأماكن والأقاليم الغنية بتلك المعادن في عمان . ويصف من ضمنها ميناء مسقط حيث توجد فيه معادن النحاس، وشواطئ جزر كوريا موريا حيث تكثر فيها، حسب قول سيرفبر كميات الذهب والرصاص[٦] .

اقترح كاتب التقرير للإمبراطور الروسي اليكساندر الأول إرسال أسطول روسي لاحتلال مسقط مكوناً من المراكب التالية :

طراد واحد وفرقاطة واحدة وسفينة شراعية بصاريين و٢ أو ٣ ناقلات حربية لنقل البحارة الروس والعتاد الحربي والذخائر من روسيا إلى ميناء مسقط . وأكد سيرفبر ضرورة الحفاظ على سرية العملية العسكرية خاصة من أعضاء الحكومة البريطانية أو عملائها . أوصى بتركيز القوات الروسية في مسقط في القلعتين القديمتين (البرتغاليتين سابقاً) الواقعتين على خليج مسقط[٧] .

ومن أجل إنجاح هذه الحملة العسكرية والسياسية قدم سيرفبر توصية للإمبراطور الروسي بإنشاء اتصالات دبلوماسية وسياسية حميمة مع حاكم عمان بفتح سفارة روسية في مسقط (طبعا برئاسة سيرفبر نفسه) . وعلى السفارة أن تتفاوض مع السلطات المعنية على الشروط لإبقاء الحرس والأسطول الروسي في مسقط بصفة دائمة . ومن ثم ذكر سيرفبر مفردات الهدايا التي يجب أن ترسل إلى السفارة الروسية في مسقط لتقديمها لكل من جلالة سلطان عمان ووزرائه وقادة البلاد التقليديين الآخرين . ومن بين الهدايا جاء ذكر علب فضية وذهبية صغيرة مزينة بأحجار كريمة ومجوهرات متنوعة، ومسدسات وسيوف ومنظارات وأقمشة وفابريكات خاصة من لون أزرق على أساس أن سلطان عمان يفضل اللون الأزرق[٨] . وإذا قرر الإمبراطور الروسي تعيين سيرفبر سفيراً فوق العادة مطلق الصلاحية لروسيا في بلاط جلالة سلطان عمان، فإن كاتب التقرير مستعد لإرسال أخيه لروسيا رهينة كي يثبت ولاءه إلى الإمبراطور الروسي والإمبراطورية الروسية ككل .

ومن الناحية التاريخية تتضمن هذه الوثيقة التي ظلت غامضة حتى الآن، معلومات مشوقة جداً عن سلطنة عمان ووصفاً مفصلاً لطقسها وموقعها الجغرافي وزراعتها وتركيب سكانها من حيث الأديان والأجناس والملامح البارزة في سيرة سكانها . وعلى الرغم من أن هذا الوصف يعتبر قصيراً اليوم ألا أنه كان وصفاً مفصلاً آنئذ للحياة العائلية كما كانت في مستهل القرن التاسع عشر .

ورفع التقرير للإمبراطور الروسي الذي لم يكن على معرفة بالأوضاع السائدة في ذلك البلد الشرقي الغامض البعيد (فما بال المواطنين الروس العاديين غير العلماء أو المستشرقين الذين ما كانوا يعرفون شيئاً عن عمان !) . وتفيد المعلومات التي أوردها سيرفبر في تقريره بأنه زار عمان فعلاً وجمع بعض المعلومات عنها .

وصف سيرفبر دولة عمان على النحو الآتي :

"إن المدينة الرئيسية في عمان هي رستاق . وتقع رستاق في المنطقة الخلفية لعمان على بعد حولي ٥٠ فرشت من ميناء مسقط . (الفرشت في الاصطلاح الروسي يساوي مسافة ميل) . ويسكنها المسلمون من مذهب خاص يسمى بيسيون أو أباضيون .

إن العمانيين ذوو أخلاق كريمة يتصفون بالشجاعة كما أنهم مخلصون . ويبدون الصداقة نحو الأجانب . ويؤمنون بالسحر والكيمياء . وجريمة السرقة غير معروفة لدى العمانيين . وكثيراً ما يترك العمانيون سلعهم التجارية والممتلكات في شوارع مسقط دون حراسة بدلاً من الدكاكين والمخازن . وكل من يجوب الشوارع ليلاً يجب عليه أن يحمل في يده مشكاة .

ويكثر ضباط الشرطة في شوارع مسقط . وعندهم خبرة وتدريب ملموس . إن الجبال الموازية للساحل العماني قاحلة وغير مزروعة جيداً بصفة عامة . لكن الوديان التي تتخلل هذه الجبال على الجانب الآخر خصبة ومزروعة جيداً . فتتمتع دولة عمان وميناء مسقط بوفرة الفواكه والخضراوات واللحوم الطرية . وتكثر الأسماك في خليج عمان وفي الخليج العربي على السواء . كما توجد مناجم رصاص حول مدينة مسقط .

وتوجد مزارع كثيرة للقمح والذرة والتمر والعنب . ويزرع القمح في منطقة مسقط في ديسمبر ويحصد في نهاية مارس . ويحصد التمر من فبراير الى أبريل . والمحاصيل الزراعية في سلطنة عمان بشكل عام غزيرة ومتوافرة .

ويوجد البن في عمان غير أن العمانيين لا يزرعونه بصفة منتظمة .

يبدأ فصل الأمطار في شهر أكتوبر وينتهي في ديسمبر . وتكون فترة الصيف في عمان في يناير وفبراير جافة وتشبه موسم الخريف في إيطاليا . ويكون الطقس في سبتمبر وأكتوبر لطيفاً ومعتدلاً ويأتي بالثمار الأولى . بينما يشتد

الصيف من يونيو إلى أغسطس غير أن الرياح من البحر تخفض شدة الحرارة بعض الشيء"[٩] .

وفي الختام لاحظ سيرفبر بأن المسافة بين عاصمة الإمبراطورية الروسية ، سان بطرسبرج وميناء مسقط في عمان ليست كبيرة للغاية كما يبدو ، ولا تزيد عن المسافة بين لندن في بريطانيا العظمى وكالكوتا في الهند أو بين مدريد في أسبانيا ومستعمراتها في أرخبيل الفلبين في المحيط الهادي[١٠] .

ومن أجل توضيح تقريره أرفق معه سيرفبر خريطة تحت عنوان "خريطة جزء من آسيا لسيرفبر" أي خريطة (البحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج العربي وأقاليم تركيا وإيران ومصر وشرق أفريقيا وغرب الهند واليمن والجزيرة العربية وعمان) . وتعرض الخريطة كلاً من المدن الكبيرة والأنهار الرئيسية أيضاً لهذا الجزء من آسيا بالتركيز على عمان . وليست الخريطة دقيقة وترسم المعالم على وجه التقريب وهي في بعض الأحيان تظهر بيانات قديمة . ولا توجد فيها معالم جغرافية هامة كالمدن والجبال والقرى والصحاري . .الخ . وهذا أمر طبيعي لأن أقاليم الجزيرة العربية خاصة الجزء الشرقي منها لم تكن معروفة لدى السياح والعلماء الأوروبيين آنئذ الذين لم يتوجهوا إليها كثيراً . ومع ذلك عرضت الخريطة عدة أماكن ومدن هامة في عمان كالرستاق ومسقط وجزر كوريا موريا وبعض الأماكن من الإمارات المتحدة العربية الحالية .

وحسب الكتابات المتواجدة في الصحيفة اليومية المسماة "صحيفة كامير - فوربير" التي نشرت قائمة أسماء الأشخاص الذين كانوا مخولين لعقد مقابلات رسمية مع أشخاص بارزين نيابة عن الإمبراطور الروسي . جرت هذه المقابلات بدقة وصرامة . ودخل اقتراح سيرفبر حول احتلال مدينة مسقط لترويج تجارة رابحة ضمن هذه المقابلات . ولم يتلقاه الإمبراطور في عام ١٨٢٤م أو حتى في ١٨٢٥م وهو العام الذي توفى فيه الإمبراطور .

ولا تحمل صفحات هذه الوثيقة أي علامات أو ملاحظات للإمبراطور ، وعلى الأرجح أنه لم يرها ولم يتخذ أي قرار في الموضوع سواء كان سلبيا أو إيجابيا حول ما إذا كان اقتراح احتلال ميناء مسقط من قبل البحارة والجنود الروس لإنشاء قاعدة بحرية فيها وهي بالقرب من

ملتقى الخليج العربي والخليج العماني مقبولا أم لا .

وكانت هذه الوثيقة مجهولة إلى الآن ولم يطلع عليها الروس أو العمانيون أو العالم الخارجي أو أحد من العلماء أو المستشرقين أو المستعربين . ويمكن اعتبارها وثيقة مشوقة جداً (ولو أنها عدوانية وغريبة من الناحية الروسية) تعالج بعض الجوانب للاتصالات الروسية العمانية .

وهذا التقرير ليس طويلاً من حيث الحجم ولا يزيد عن ١٢ صفحة ومع ذلك فهو ملفت للنظر بصفته وثيقة مهمة تاريخية ذات معلومات عن عمان في القرن التاسع عشر من شخص قام بزيارتها فيما قبل .

لقد شهدت الإمبراطورية الروسية تنمية اقتصادية واسعة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . ونتيجة توسعة شبكة سكة الحديد في روسيا فقد سجلت أرقاماً قياسية في إنتاج المنسوجات والصناعات الثقيلة كالصلب والحديد والتنقيبات النفطية وتعدين الفحم . . الخ . وقد تطلب التوسع في الصناعات الروسية وتجارتها مع العالم الخارجي أسواقاً جديدة لمنتجاتها .

وبث نفوذها على الأصعدة السياسية والاقتصادية والعسكرية آنئذ أدى إلى التنافس الدائم والمتزايد مع الدول الاستعمارية الأخرى، خاصة بريطانيا واليابان .

وفي نهاية القرن التاسع عشر عادت روسيا إلى اهتمامها بالشرق الأقصى المرتبط بسكة حديد عبر سيبيريا . وجعل سيبيريا مستعمرة . مع التخطيط للتوغل الاقتصادي في الصين . وحصلت روسيا في عام ١٨٩٨م على أرض مؤجرة لخمسة وعشرين عاماً في شبه جزيرة ليوتنج بما فيها ميناء آرثر (لوشان) وهو أول ميناء روسي خال من الثلج في الشرق الأقصى ومتصل بسكة حديد بـ "هاربين" . وأثناء ثورة "بوكسنج" في الصين في عام ١٩٠٠م احتلت القوات الروسية مانشوريا بأكملها وظلت هناك حتى منيت بالهزيمة على يد اليابان في عام ١٩٠٥م . وفقدت روسيا سخالين وميناء آرثر .

ومن أجل تأسيس وتوطيد صلاتها السياسية والعسكرية والتجارية مع ولاياتها النائية في الشرق الأقصى، الواقعة على بعد ٦ آلاف ميل من سان بطرسبرج، عاصمة الإمبراطورية

الروسية ، أسست روسيا عدة خطوط بحرية للسفن البخارية في نهاية القرن العشرين . وبدأت الرحلات من الموانئ الروسية في البحر الأسود وانتهت في الموانئ الواقعة في الشرق الأقصى .

وفي غضون نفس الوقت أو على الأرجح قبل ذلك بقليل بدأت الإمبراطورية الروسية إرسال سفنها الحربية إلى الخليج العربي لاستعراض العلم الروسي ولاكتشاف السواحل الخليجية التي اعتبرتها بريطانيا في النصف الثاني للقرن التاسع عشر ذات أهمية خاصة لها. وكان الطراد الروسي "تزني نوفغورد" أول السفن الحربية التي تجوب المياه الخليجية وتزور موانئها بما فيها ميناء مسقط في عام ١٨٨٣م . ولاحقاً استهدفت روسيا تقوية أسطولها البحري في الباسيفيك ونقلت إليه سفنها الحربية والطرادات والمدمرات من أساطيلها في بحر البلطيق والبحر الأسود . وفي طريقها إلى القاعدة الروسية في الشرق الأقصى قامت سفنها الحربية بزيارات إلى عدة موانئ في البحر المتوسط والبحر الأحمر وبحر العرب والخليج العربي والهند وجنوب شرق آسيا والصين واليابان . وقد زار معظم السفن الحربية والسفن التجارية مسقط في عمان أولاً بأول . ومن بين السفن الحربية التي زارت مسقط كانت كل من "جلياك" والطرادات "اسكولد" و"فارياج" و"فرنجيان" وأخرى كثيرة[١١] .

وقد بذل رجال الدولة الروس في بداية القرن العشرين اهتماماً كبيراً بالخليج العربي والأوضاع السياسية والاقتصادية السائدة في هذه المنطقة الآسيوية . وخطة ألمانيا لمد سكة حديد بين برلين وبغداد إلى سواحل الخليج العربي عن طريق إقليم الكويت الحديثة ومحاولاتها لتوطيد موقعها في الشرق الأوسط خلقت بعض التوتر في الدوائر الروسية . وكان إمكان التغيير في التوازن السياسي بين الدول الأوروبية في مواقفها في الخليج حيث لعبت بريطانيا دوراً بارزاً فيه ، علماً بأن روسيا كانت حليفة بريطانيا آنئذ هو السبب الآخر للسفن الحربية الروسية لتزور المنطقة . ولم ينس بعض رجال الدولة الروس ما يسمى وصية بطرس الأعظم . ومن محتويات هذه الوثيقة (ربما مزورة) مادة تشير إلى الوصول إلى مياه دافئة لتخدم مصالح الإمبراطورية الروسية . والموانئ الخليجية كانت أقرب الأماكن في مياه

دافئة . وكان هذا هو السبب الآخر لزيادة اهتمام روسيا بالأوضاع السياسية والاقتصادية في الخليج العربي .

إن روسيا بصفتها بلداً آسيوياً وأوروبياً في نفس الوقت، كانت لها صلات قريبة مع معظم البلدان والشعوب في الشرق الأوسط منذ قديم . وقد زار الروس بلدان الشرق الأوسط لأغراض مختلفة، السياسية والدينية والتجارية والعلمية الثقافية . .الخ . والعلماء الروس درسوا التاريخ والثقافات واللغات في بلدان الشرق الأوسط . وأقام التجار الروس علاقات تجارية مربحة للطرفين مع بلدان الشرق الأوسط . ولكن في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين لم تكن روسيا على دراية تامة بالدول والإمارات الواقعة على السواحل العربية في الخليج .

لقد أرسلت عدة حملات علمية روسية إلى القرى والأماكن الواقعة على الساحل الغربي للخليج العربي في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . ولا يمكن أن ننسى العالم الروسي "نيكولاي بوجويافلينسكي" أستاذ البيولوجيا في جامعة موسكو الرسمية، الذي زار كلاً من المحمرة والكويت والمنامة ومسقط في ١٩٠٢م . وقام بدراسة الأوضاع السياسية والاقتصادية والثقافية والجغرافية السائدة في البلدان والدول الواقعة على السواحل الخليجية وبذل اهتماماً بالغاً بتعميق الروابط السياسية بين روسيا وبين حكام كل من الكويت والبحرين وعمان . غير أنه لم يهمل الهدف الأساسي لزيارته وهو اكتشاف ودراسة المصادر البيولوجية الموجودة في الخليج العربي والجزيرة العربية . وأخيراً، نشر مستشرق روسي من موسكو، جنادي جورياشكين كتاباً باللغة الروسية يشرح فيه تفاصيل هذه الزيارات .

ويعتمد هذا الكتاب على التقرير حول الزيارة المحفوظ في الأرشيفات الروسية[١٢] . وكان العلماء والدبلوماسيون والتجار الروس على معرفة أكثر بالساحل الإيراني في الخليج من الساحل العربي .

وكانت للإمبراطورية الروسية اتصالات وثيقة مع الزعماء والموظفين ورجال الدولة للولايات الإيرانية الجنوبية وحكام إيران وليس مع الدول الخليجية العربية . وكانت قد فتحت عدة قنصليات إمبريالية روسية في مدن

إيرانية بما فيها الولايات الجنوبية . وفي نفس الوقت يجب ألا ننسى أن وضع روسيا في شمال إيران كان قويا بينما كان وضع بريطانيا أقوى بكثير في الولايات الجنوبية .

ومعظم العلماء والسياح والدبلوماسيين والصحفيين الذين زاروا أو سكنوا البلدان على الساحل الغربي للخليج في أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كتبوا مقالات وتقارير وبحوثا حول الجوانب المختلفة لأنماط الحياة في هذه البلدان .

إن المقالات والوثائق المختلفة عن بلدان الخليج العربي ومنها عمان، والموجودة في الأرشيفات الرسمية للقوات البحرية للاتحاد الروسي تصف الجوانب المختلفة للحياة السياسية والاقتصادية والتجارية والثقافية والأنشطة التقليدية وأنواع الحرف والمهن . .الخ .

ويمكن القول بأن الأرشيفات الروسية الرسمية والجرائد الروسية، سواء المطبوعة باللغة الروسية أو اللغات المستخدمة من قِبل مسلمي الإمبراطورية الروسية، هي كنز للمعلومات والمواد التاريخية الموثوقة عن تلك البلدان بما فيها عمان .

وهناك أرشيف هام آخر للوثائق الروسية التاريخية وهو الأرشيفات المركزية الرسمية للقوات البحرية . وموقعها أيضاً في سان بطرسبرج . وتعتبر من أقدم الأرشيفات في روسيا . وهي الأرشيفات الوحيدة الخاصة التي تتعلق بسجلات ووثائق تاريخ البحرية الروسية والأسطول التجاري الروسي . وتم تأسيسها في ١٧٢٤م بأمر من الإمبراطور الروسي بطرس الأعظم . وتشمل أكثر من ١.٢ مليون صورة للوثائق والخرائط ويوميات السفن والرسوم والمسودات وصور السفن والمخطوطات والمطبوعات المرتبطة بتاريخ الأسطول الروسي والبحرية الروسية .

ويرجع بعض الوثائق إلى العلاقات بين روسيا وبلدان الخليج العربي بما فيها عمان . وتوجد فيها الوثائق المتعلقة بالاقتصاد والهيكل الإداري والعلاقات الدبلوماسية والسياسية العمانية مع البلدان العربية الأخرى وبلدان الشرق الأوسط والعالم .

ونظراً لأن بواخر الأسطول التجاري الروسي والسفن الحربية الروسية كانت تجوب المياه الخليجية فأرشيفاتها تحتوي على معلومات قيمة عن سلطنة

عمان .وكان على نواخذة السفن الحربية والتجارية الروسية التي زارت عمان، أن يرفعوا تقاريرهم عن زياراتهم للموانئ الخليجية إلى هيئة الأركان البحرية أو لجنة مديري الشركات الملاحية .

وكثير من الشركات الملاحية مثل الشركة الروسية للملاحة البخارية والتجارة (إحدى أكبر الشركات الروسية) والأسطول الروسي التطوعي (الفيستا) وغيرها كانت تشغل خطاً بحرياً تجارياً منتظماً إلى الخليج العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وتحفظ الأرشيفات الروسية المركزية للقوات البحرية حسب التصنيف التالي:

[ن ٢٩]

الوثائق المتعلقة بالجنرال الروسي (ن ن بكليميشيف) . ومنها التقارير لنواخذة البواخر الروسية التجارية التي أبحرت إلى الخليج العربي في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

[ن ٤١٧]

وثائق الأركان العامة للبحرية الروسية . وتشمل تقارير نواخذة السفن الحربية التي زارت الخليج بين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . وتتعلق بعض الوثائق بزيارة السفن الحربية إلى ميناء مسقط، عاصمة عمان .

[ن ٤١٠]

وثائق مكتب وزارة البحرية الروسية وتتضمن معلومات عن الخليج العربي وسواحل الخليج وأسلوب الملاحة في مياهه .

ونظراً لكثرة الوثائق عن سلطنة عمان ومدينة مسقط (أكثر من ٥٠ وثيقة) الموجودة في الأرشيفات، أختار هنا ثلاثاً فقط للتعرف عليها وتفسيرها . وهذه الوثائق مكرسة تذكاراً لزيارة سفينتين حربيتين هما "فارياج" و"أسكولد" وسفينة بخارية تجارية "كورنيلوف" إلى مسقط في بداية القرن العشرين .

وكما ذكرت سابقاً، فإن الحكومة الروسية ووزارة الحرب أرادت تقوية أسطولها في الباسيفيك . ونقلت عددا من السفن الحربية من البلطيق والبحر الأسود إلى الباسيفيك . ومعظمها مرت بميناء مسقط من بين الموانئ الأخرى .

ومن أوائل السفن البخارية الروسية التي أبحرت إلى الخليج العربي من ميناء

أوديسا في البحر الأسود، كانت الباخرة "كورنيلوف". وزارت ميناء مسقط الرئيسي في سلطنة عمان في عام ١٩٠١م. ورست فيها لثلاثة أيام من ٣ إلى ٦ مارس.

ومن بين طاقم "كورنيلوف" كان البائع المتجول الأرشد من الشركة الروسية للملاحة والتجارة "كلاسنج" الذي وصف ميناء مسقط في تقرير بعنوان: **"تقرير عن السفر الأول للباخرة "كورنيلوف" إلى الخليج من ٣ فبراير إلى ١١ مايو ١٩٠١م"** [١٣]:

"تقع مدينة مسقط على ساحل خليج صغير يتسع لإرساء عدد قليل من السفن. وعلى العموم ترسو السفن على بعد ربع ميل من الساحل. ومرت باخرتنا بقلعة مسقط مزينة بالعلم الروسي التجاري والعلم العماني على ساريتها ربما لأول مرة في تاريخها. وأطلقت طلقات تحية من مدفعها. وردت المدافع العمانية من جانبها لتحيتنا.

وأكرمني صاحب الجلالة سلطان عمان بمنح فرصة لي رسمياً لأقدم نفسي أمامه. وأعرب عن ارتياحه بوجود سفينة روسية في الميناء [١٤]*. وبإمكان سلطنة عمان أن تشارك روسيا في التجارة بصفة رئيسية في الخليج على الرغم من أن حجم واردات عمان ليس بكبير.*

وتستورد عمان عامة الكيروسين والسكر والخشب والصناديق الخشبية لتعبئة التمور فيها. و(كل صندوق خشبي يتسع لأربع علب من الكيروسين - جريجوريف).

وكان حجم الصادرات العمانية ضخماً. والتمور من صادراتها الرئيسية. ويمتد موسم التمور من سبتمبر إلى يناير. وتصدر عمان حوالي ٤٠ ألف طن من التمور سنوياً من ثلاثة أنواع من حيث جودتها. وتصدر من أحسن نوع منها حوالي ١٠ آلاف طن في الصناديق الخشبية والأكياس. ومن الدرجة الثانية تصدر في أكياس بقيمة ٧٥ روبية لكل كيس. ويكلف النوع الثالث من ٤٠ إلى ٥٠ روبية لكل طن. وتقسم التمور الجافة إلى قسمين. والقسم الأول

يكلف ٢٠٠ روبية لكل طن والنوع الثاني حوالي ١٥٠ روبية .

والتمر من أحسن نوع أصفر اللون . وينضج في عمان مبكراً بشهرين عن تمر البصرة . وتصدر التمور من الدرجة الأولى إلى أوروبا فقط . والأنواع الأخرى تصدر عبر العالم كله .

وتصدر عمان الليمون الجاف وعرق اللؤلؤ . وعرق اللؤلؤ إما من الناتج المحلي أو يستورد من سقطرا . وتصدر سلطنة عمان الليمون الجاف إلى كل من البصرة وبغداد . وتبلغ صادراتها منه ٢٠٠ طن . وسعره ١١٢ جنيهاً استرلينياً لكل طن[١٥].

إن اللغات المستخدمة في الموانئ الخليجية هي العربية والإنجليزية . ومن السلع الروسية المقبولة في الدول الخليجية وعمان، السكر والسكر الكريستال والكيروسين . ولدى روسيا فرص كثيرة لتكثيف تجارتها في هذا الجزء من آسيا "[١٦].

إن الحكومة الإمبراطورية الروسية، وفقاً لأوامر الإمبراطور نيكولاس الثاني، أرسلت الطراد "اسكولد" إلى الخليج العربي في خريف عام ١٩٠٢م . وأصدر الأميرال هافيلان قائد البحرية تعليمات مفصلة إلى قبطان السفينة العميد البحري رانشينستاين عن أهداف الرحلة التي يجب أن تنقل إلى طاقم السفينة الحربية أثناء السفر . وتتضمن وثيقة من مقتنيات الأرشيفات المركزية البحرية الفيدرالية النقاط الرئيسية من تلك التعليمات . وتحمل الوثيقة العنوان الآتي: "تعليمات رئيس البحرية نائب الأميرال هافيلان إلى العميد البحري رانشنستاين، قائد الطراد "اسكولد" مؤرخه في ١٥ أكتوبر ١٩٠٢م . سري جداً"[١٧] أن هذه الوثيقة مهمة سياسياً وتاريخياً . وتتضمن خلاصة الأهداف السياسية والدبلوماسية الروسية في الخليج العربي وعمان في بداية القرن العشرين، ووردت فيها النقاط التالية :

١ - الغرض الأساسي من زيارة "اسكولد" للخليج العربي هو استعراض علم الإمبراطورية الروسية هناك .

٢ - تؤكد الزيارة للعالم كله وللعرب على ساحل الخليج في أول الأمر، بأن الخليج العربي يمثل مياهاً مفتوحة وقابلة للملاحة فيها ومتاحة

للسفن التجارية والسفن الحربية لكافة بلدان العالم وليس للسفن التي ترفع العلم الإنجليزي فحسب .

٣ - نظراً لمحاولات إمبراطورية ألمانيا مد نفوذها إلى منطقة الخليج العربي، تكون زيارة الطراد الروسي للخليج ملائمة من الناحيتين السياسية والاقتصادية . ويشاهد سكان السواحل الخليجية أن البحرية الروسية قوية ومجهزة بالسفن الحربية الحديثة وأن أغراض روسيا سلمية تماماً . وتطمح روسيا إلى علاقات ودية مع سكان الخليج وحكامه .

٤ - وعليك وعلى الضباط المرؤوسين الاهتمام باكتشاف الموانئ العربية الخليجية . إنها مهمة من وجهتي النظر العسكرية والتجارية . وعليك أن تدرس سعة الموانئ من الناحية التجارية .

٥ - يجب الاهتمام الخاص بميناء مسقط، الميناء الرئيسي لسلطنة عمان . وللحكومة الفرنسية محطة فحم هناك لتزويد البواخر التجارية والحربية الفرنسية بالوقود . ولا يمكن للمحطة الفرنسية للفحم أن تزود البواخر والسفن الروسية بالفحم الفرنسي . وعليك أن تحاول عقد لقاء شخصي مع جلالة سلطان عمان وتبحث عن إمكانية إقامة محطة فحم في مسقط لتزويد السفن الروسية بالفحم(١٨) .

وعلى الباحث عن تاريخ عمان الذي يفحص الوثائق التاريخية الموجودة في الأرشيفات الروسية في سان بطرسبرج، ألا يجهل وثيقة مشوقة مهمة أخرى تسمى "تقرير العميد البحري "رانشنستاين"، قائد الطراد الروسي "اسكولد" عن الرحلة إلى الخليج العربي المؤرخة في نوفمبر ١٩٠٢م"(١٩) .

إن هذه الوثيقة التي كتبها أحد كبار ضباط البحرية تتضمن عدة ميزات عسكرية ويتناول الكاتب أولاً وصفاً لميناء مسقط وخليجها ورأس الطريق ومخازن الفحم والقلاع التي دافعت عن الميناء من جهة البحر والأسطول التجاري العماني والجوانب السياسية والاقتصادية الأخرى غير المعروفة لدى الروس عامة . ونظرا لدقة تعبير هذه الوثيقة الهامة قلباً وقالباً، أريد أن أنقل بعض المقتطفات منها دون تعليق:

"لقد زار الطراد اسكولد ميناء مسقط في ١٩ نوفمبر ١٩٠٢م . وكانت

السفينة الحربية الإنجليزية (ريدبر يست) راسية في الخليج على رأس الطريق . وأطلقت اسكولد طلقات نارية تحية للجانب العماني مع رفع العلم العماني على ساريتها . وأطلقت المدافع في باب القلعة التي كانت تحرسها طلقات نارية رداً على تحياتنا . ورفع العلم الروسي على القلعة . وما كان لدى الإدارة العمانية علم روسي فحصلت عليه من القنصلية البريطانية المحلية .

إن مسقط مدينة رئيسية لسلطنة عمان، تدعى أحياناً "سلطنة مسقط" . ولا يسري الأمر السلطاني إلا في حدود مدينة مسقط وضواحيها . ويمكن اعتبار القبائل البدوية التي تسكن عمان شبه مستقلة . ويبرم جلالة السلطان اتفاقات خاصة معها وأحياناً يدفع لها معونات مالية . ويتلقى سلطان عمان من حكومة الهند سنوياً ما يعادل ١٥٠ ألف فرنك فرنسي . ومصدر الدخل الآخر هو الضرائب المفروضة على البضائع المستوردة من قبل الأجانب . وتبلغ هذه الضرائب حوالي ١٥٠ ألف فرنك فرنسي .

إن عدد الأوروبيين في مسقط سبعة فقط . وهم القناصل من كل من فرنسا وبريطانيا والولايات المتحدة وأربعة تجار .

امتلك سلطان عمان سابقاً باخرتين استخدمهما للأغراض التجارية . لكنهما عاطلتين عن العمل وترسيان في الخليج . واشترى السلطان باخرة جديدة من بومباي لكنها لم تصل إلى مسقط حتى الآن [٢٠] .

ويأتي البريد إلى مسقط على ظهر باخرة بريطانية من الموانئ الهندية . ويصل البريد من باريس بعد ٢٠ يوماً . وتبحر البواخر حاملة المسافرين والبضائع التجارية بصورة منتظمة من مسقط وتزور الموانئ الخليجية الأخرى وكذلك ميناء كراتشي في الهند .

توجد خمس سفن حربية بريطانية في الخليج العربي دائماً وواحدة منها متمركزة في مسقط . وتتناوب السفن الحربية كل أسبوعين . إن السفن الحربية الخارجية لا تزور مسقط إلا نادراً . والسفينة الحربية الفرنسية من مدغشقر تزور مسقط ثلاث مرات في السنة كما تزورها سفينة حربية أمريكية أحياناً .

تكون درجة الحرارة عالية جداً في نوفمبر . لكن الرياح التي تهب من البحر ترطب درجات الحرارة . ولا تستطيع السفن والبواخر أن ترسو

قريباً من الساحل بسبب عدم تواجد الرصيف في مسقط . ويحتاج المسافر إلى النزول إلى مركب من الباخرة وعندما يكون مستوى المياه منخفضاً في الجزر لا يستطيع المسافر أن ينزل إلى ميناء مسقط حتى من المركب . وخليج مسقط مليء بالفشوت والصخور . وتوجد محطتان للفحم في مسقط إحداهما للإنجليز والثانية للفرنسيين .

توجد دكاكين كثيرة في المدينة لكن لا يوجد أي فندق من درجة ملائمة للأوروبيين . ويزود المقاولون السفن باللحم والدجاج والليمون والخيار والخبز والمياه المعدنية والمعلبات .

أحياناً تشهد سفناً عربية ترفع علماً فرنسياً بالقرب من مسقط . هناك معاهدة بين فرنسا وعمان تعطي لفرنسا الحق في توفير الأمان للعرب من مدغشقر الساكنين في عمان، ورفع العلم الفرنسي على سفنهم . ويبلغ عدد السفن من هذا النوع حوالي ٣٠ ويشرف عليها القنصل الفرنسي .

وفي ٢٠ نوفمبر رحب بنا (العميد البحري رانشستاين وطاقمه) جلالة السلطان فيصل بن تركي . وترك لنا فينا اللقاء أثراً طيباً عن أخلاقه وثقافته وسلوكه الكريم . وتفضل جلالته بالترحيب بنا عند الباب وكان معه أخوه وابنه . وكان الحرس السلطاني مصطفاً ضباطاً وجنوداً بجانب جدران القصر . ولقد قدمت لجلالته ضباط الطراد اسكولد . إن جلالته ليس بكبير السن وترك أثراً طيباً علينا جميعاً . إنه لطيف ومثقف وبارع ورحب بنا بلطف وكياسة . قال لنا جلالته أنه يفرح كلما زارت سفينة روسية حربية ميناء مسقط . وأثناء مقابلته وجه جلالته لنا بعض الأسئلة عن طريق مترجم . مما أكد لنا بأنه كثير الإطلاع عن بناء سفن حربية حديثة وعما يدور في أوساط أوروبا والعالم . وتلقينا كرم الضيافة منه وتناولنا القهوة والمشروبات . ومن ثم أعرب عن رغبته في زيارة الطراد مما بعث بموجة من الفرح في نفوسنا .

وتفضل جلالته بزيارة الطراد مصطحباً أخاه وابنه والحاشية . وبعد تفقده الطراد طلب جلالته من الفرقة الموسيقية عزف ترنيمة روسية . ولاحقاً نقل جلالته أطيب تهانيه إلى الإمبراطور الروسي وبأنه مسرور من زيارة السفينة الروسية ميناء مسقط . ودعونا السلطان للعشاء مع ضباط الطراد لكنه رفض ذلك بسبب صيام رمضان . ويهوى السلطان التقاط الصور كما صورنا صوراً عديدة مع جلالة السلطان .

اقترح السلطان جلب البضائع الروسية إلى عمان وبيعها هناك مما يربح التجار الروس كثيراً . والسلطان مولع بالموسيقى وقبل مغادرته الطراد استمع إلى ألحان عديدة . أنا وضباط الطراد سررنا كثيراً من شخصية السلطان وزيارته الطراد[٢١] .

لقد ذكرت وشرحت وأشرت جزئياً إلى وثيقتين تتعلقان بتاريخ عمان في حوزة الأرشيفات المركزية الرسمية في روسيا الفيدرالية كما أشرت إلى ثلاث وثائق في حوزة الأرشيفات البحرية المركزية الروسية .

ويقتنع أي باحث في التاريخ أو العلاقات الدولية سواء في روسيا أو الدول الخليجية وخاصة دول مجلس التعاون الخليجي، بأن الاتحاد الفيدرالي الروسي رغم بعده عن عمان فقد اهتم بدراستها . والأرشيفات الروسية التاريخية الموجودة في العاصمة السابقة لإمبراطورية روسيا سان بطرسبورج، غنية بالوثائق عن عمان . وتعالج تاريخها وبنيانها السياسي والاقتصادي وثقافتها وتقاليدها . وجاء ذكر معظم هذه الوثائق في كتاب عنوانه: **"إطلالة على تاريخ الخليج العربي والجزيرة العربية من خلال الوثائق الروسية – الجزء الأول"** أعده كل من الدكتور علي أباحسين، مدير مركز الوثائق التاريخية في البحرين والدكتورة يافعة يوسف جميل من جامعة سان بطرسبرج والدكتور جنادي جورياتشكين من جامعة موسكو، ونشر في ١٩٩٩م في المنامة، عاصمة البحرين متضمناً مقدمة شاملة دقيقة من سعادة الشيخ عبد الله بن خالد آل خليفة[٢٢] .

إن ظهور هذا الكتاب الذي أعده مركز الوثائق التاريخية _ البحرين تحت رعاية الأمانة العامة لمراكز الدراسات والوثائق في الخليج العربي والجزيرة العربية، دليل آخر يؤكد أهمية استخدام الوثائق الروسية في دراسة بلدان الخليج العربي .

وإن تحليل الوثائق التي ذكرتها وقمت بدراستها آنفاً في هذا البحث يفيد إذ يمكن تقسيمها إلى فئتين رئيسيتين . والفئة الأولى تشمل الوثائق المكتوبة باللغة الروسية من قبل أشخاص غير رسميين . وكان منهم "سيرفبر" الذي زار عمان قبل الآخر وهو "ليف روشستاين" . ووجهت رسائلهما عن عمان إلى الإمبراطور الروسي اليكساندر الأول والسفير الروسي في فرنسا وتتضمن

معلومات قيمة عن عمان . غير أن اقتراحاتهما وتوصياتهما كما وردت في تلك الرسائل خطيرة جداً لأنها تهدف إلى التدخل الروسي ضد سلطنة عمان . ومن حسن الحظ لم تتحقق هذه الأفكار العدوانية لسيرفبر وليف روشستاين - مع أنهما لم يكونا روسيين أصلاً - ويرجع ذلك إلى الحكمة ومواجهة الحقائق للإدارة الروسية .

والوثائق الثلاث الأخرى المتعلقة بعمان مكتوبة من ضباط القوات البحرية الروسية والبائع المتجول للشركة الروسية للبواخر والتجارة . وهي واقعية أكثر وتتضمن معلومات مشوقة كثيرة وفي مقدمتها معلومات سياسية واقتصادية عن عمان كما كانت في بداية القرن العشرين تعكس وجهة النظر الرسمية للإمبراطورية الروسية تجاه عمان مستهدفة تأسيس العلاقات السياسية والتجارية بينهما مبنية على المنفعة المتبادلة .

الدكتور سيرجي جريجوريف